الإحالة بالضمائر في سورة الحاقة

(دراسة إحصائية نصية)

إعداد

محمد نور الدين المنجد **زاهر بن مرهون الداودي**

جامعة السلطان قابوس

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

• **ملخص البحث:**

هـذا بحـث تطبيقـي في الاتسـاق النـصي يعتمـد عـلى الإحالـة بالضمائـر أداةً، وعلى سـورة الحاقـة مدونةً، ويتخذ مـن الإحصاء والوصـف منهجاً، ومن الجـداول الإحصائية والأشـكال التوضيحية والرسـوم البيانية وسـيلة.

عـرّف البحث الاتسـاق النـصي وبيّن أدواته ولا سـيما الإحالـة منهـا؛ فعرّفها، وذكر أنواعهـا وأدواتهـا، وخـصّ الإحالـة بالضمائـر بمزيـد عنايـة وتفصيل. ثم شرع في سـورة الحاقـة فبـيّن أغراضهـا، وأحصى ضمائرهـا، وصنف تلـك الضمائر تصنيفات عـدة، بالنظر إلى العـدد، والجنـس، والغيبـة والحضور، والاسـتتار والظهور.

وخلـص البحـث إلى وضع خارطـة لشـبكة الإحالات في سـورة الحاقـة، وإلى معالم إحصائيـة كان أبرزهـا أنَّ ضمـير الغائب (هو) كان أكثـر الضمائر تكراراً وفاعلية في رسـم مشـاهد السـورة الكريمـة، وإحـكام اتسـاقها داخليـاً، إضافـة إلى ربطهـا بإحـدى البنـى الكـبرى في عمـوم الخطاب القـرآني، وكان أبـرز مراجع الضمـير إحالةً قوله تعـالى: ﴿مَنْ أُوتِـيَ كِتَابَـهُ بِشِـمَالِهِ﴾، وتبـين أنَّ مشـهد يـوم العـرض ومـا فيـه مـن ثواب وعقـاب هو البنيـة الكـبرى للسـورة، وعليـه معقـد النـص، وفي فلكه تدور السـورة.

وأعاد البحث ترتيب مشاهد السورة بحسب منزلة كلٍّ مشهد في السلّم الإحالي، فكان مشهد يوم العرض وما فيه من ثواب وعقاب أولاً، ثم مشهد تنزيه القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم عن المطاعن، ثم مشهد افتتاح السورة بذكر الحاقة وإهلاك المكذبين بها من الأمم السابقة، ثم مشهد تدمير السماء والأرض والجبال إيذاناً بانبلاج مشهد جديد.

وبـيّن البحـث خصوصيـة بعـض الإحـالات في السـورة الكريمـة، فـكان منها عود الضمـير عـلى معلـوم غـير مذكـور في ثلاثـة مواضـع، واتسـاع الدلالـة باحتـمال عـودة الضمـير عـلى مرجعـين أو أكثر في ثلاثـة مواضع أيضـاً، وعـود الضمير على المضـاف إليه في موضـع واحـد، وحـذف الضمـير مـع وجـوب تقديـره في موضعين.

الكلمات المفتاحية: الإحالة بالضمير، الاتساق النصي، البنية الكبرى، سورة الحاقة.

*****

مقدمة

حازت الدراسات النصية اهتمام اللغويين والدارسين تبعاً لحركة الترجمة والتأليف التي نشطت في أذيال القرن الماضي وما تزال، وتنوعت مشارب اللسانيات الحديثة ومدارسها، واستأثر نحو النص بجهود ثلة من الدارسين، فترجموا ونظّروا وطبّقوا، وتباينت جهودهم وثمرات أعمالهم، وكان منها الكتب المنشورة والرسائل الجامعية والأبحاث المحكمة، ويمكن تصنيف كثير من هذه الدارسات في شُعَب ثلاث:

أولها: ما هو أقرب إلى العموم في بابه، كـ (بلاغة الخطاب وعلم النص) د. صلاح فضل ١٩٩٠، و(تحليل الخطاب. ج. ب. براون/ ج. يول) ترجمة د. محمد لطفي الزليطني ود. منير التريكي ١٩٩٧، و(مدخل إلى علم اللغة النصي) ترجمة: د. فالح بن شبيب العجمي ١٩٩٩، و(علم النص - مدخل متداخل الاختصاصات) ترجمة: د. سعيد حسن بحيري ٢٠٠١، و(نحو النص) د. أحمد عفيفي ٢٠٠١، و(معجم تحليل الخطاب) ترجمة: عبدالقادر المهيري وحمّادي صمّود ٢٠٠٢. و(التحليل اللغوي للنص) ترجمة: د. سعيد حسن بحيري ٢٠٠٥م.

ثانيها: ما هو أدخل في الدراسات النصية وتحليل الخطاب ولا سيما الاتساق والانسجام تنظيراً أو تطبيقاً، مثل: (لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب) لمحمد خطابي ١٩٩١، و(نسيج النص) للأزهر الزناد ١٩٩٣، و(علم اللغة النصي - دراسة تطبيقية على السور المكية) د. صبحي إبراهيم الفقي ٢٠٠٠، و(الاتساق والانسجام في القرآن) لمفتاح بن عروس ٢٠٠٨. و(المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب) د. نعمان بوقرة ٢٠٠٩، و(الانسجام النصي وأدواته) للطيب العزالي قواوة ٢٠١٢، و(التماسك والانسجام في سور الحواميم في القرآن) لضفاف عبدالنبي حراب ٢٠١٤م.

ثالثها: ما اقتصر على الإحالة، أو الإحالة بالضمائر خاصة، ومنها على سبيل المثال: (الإحالة - دراسة نظرية مع ترجمة فصلين من كتاب هاليداي ورقية حسن) لشريفة بلحوت ٢٠٠٦، و(الإحالة في النص القرآني) لياسين فوزي أحمد بني ياسين ٢٠٠٦، و(الإحالة في القرآن الكريم) لتامر أنيس ٢٠٠٨، و(الإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النص القرآني) لنائل محمد إسماعيل ٢٠١١، و(التماسك النصي من خلال الإحالة والحذف - دراسة تطبيقية في سورة البقرة) لمحمد الأمين مصدق ٢٠١٥، و(الاتساق والانسجام في سورة الكهف - الإحالة نموذجاً) لفراج وسيلة وقنان سهام ٢٠١٦، و(الإحالة بالضمائر في سورة (الإنسان) ودورها في الانسجام النصي) لأمير رفيق عولا المصيفي ٢٠١٨، و(الإحالة بالضمائر وأثرها في التماسك النصي - حديث بدء نزول الوحي أنموذجاً) لرضية بنت حسن باحميد ٢٠٢٠م.

ولا تخفى أهمية التنظير في أي علم، غير أن الجانب التطبيقي يبقى الأهم؛ إذ ينفخ في العلم حياة فيكون علماً نافعاً، ولا أنفع عند التحقيق من الاشتغال بكتاب الله، غير أن الناظر في معظم الدراسات عامة والتطبيقية منها خاصة يتبدّى له فضل السابق على اللاحق، واقتفاء الثاني أثر الأول في كثير من المظهر والمخبر على نمطية لا تكاد تتغير، فأردنا تناول الاتساق النصي في بحثنا هذا على غير مثال شكلاً ومضموناً؛ فخصصنا بالعنوان الإحالة بالضمائر أداةً، وسورة الحاقة مدونةً، واتخذنا من الإحصاء الدقيق والوصف والتحليل منهجاً، ومن الجداول الإحصائية والأشكال التوضيحية والرسوم البيانية وسيلةً؛ فخلصنا إلى تجسيد شبكة العلاقات الإحالية برسوم توضيحية، ونتائج رقمية تبرز البنية الكبرى في السورة وتوثق عُرى اتساقها داخلياً وانسجامها خارجياً مع البنى الكبرى للخطاب القرآني، وذلك لم نعهد له نظيراً في أبحاث سلفت، ولا سيما الأبحاث النصية التطبيقية في كتاب الله، وأقربها إلى بحثنا هذا رسالة جامعية بعنوان (سورتا الحاقة والقارعة ونظرية نحو النص) لحوراء حسن ميرزا، في جامعة الكويت؛

إذ اقتصر تناول الإحالة في الرسالة على مبحث من مباحث الفصل الثالث في وريقات لا تنهض بأهمية الإحالة عموماً والإحالة بالضمائر خصوصاً، ولا تفي الموضوع حقه.

وختاماً نسأل الله أن يكون بحثنا هذا علماً نافعاً، وأسوة حسنة شرعة ومنهاجاً، والحمد لله أولاً وآخراً.

تمهيد:

أخلص النحاة جهودهم في بناء الجملة عمدةً وفضلةً، وأنماطها نظماً ونثراً، وتعالق مكوناتها تقديماً وتأخيراً، أمَّا أهل الفصاحة والبيان فكان لهم صولات وجولات في مسالك الكلام وتناسق الخطاب، بدأها -فيما نعلم- الجاحظ (٢٥٥هـ) في بيان معايير جودة الشعر كتلاحم أجزائه وتماسك أركانه؛ إذ قال: «وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلمُ بذلك أنَّه قد أُفرِغ إفراغاً واحداً، وسُبِك سبكاً واحداً... حتى كأنَّ البيت بأَسْرِه كلمة واحدة، وحتى كأنَّ الكلمة بأَسْرِها حرف واحد»[١].

وتلاه الجرجاني (٤٧١هـ) فأفاض على بلاغة النص سَيْب نظريته التي عمادها نظام الخطاب والتئامه تماسكاً وإحكاماً، يقول في القرآن وإعجازه العرب: «وبَهرهُم أنَّهم تأمَّلوه سُورةً، وعُشْراً عُشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة يَنْبو بها مكانُها، ولفظةً يُنكرُ شانُها، أو يُرى أنَّ غيرَها أصلحُ هناك أو أشْبَه، أو أحرى وأخْلَق، بل وجدُوا اتِّساقاً بَهرَ العُقولَ، وأعجزَ الجمهورَ، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً...» [٢].

ويزيد نظريته بياناً في أنَّ الأصل في تماسك النص ودقة مسالكه «أنْ تتَّحِدَ أجزاءُ الكلام ويَدخلَ بعضُها في بعض، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، وأنْ تحتاج في الجملة إلى أنْ تضَعَها في النفس وضعاً واحداً»[٣]. ويشبّه مُنشئَ الخطاب بحال الصائغ يحمي على شذرات معدنه فيسكبها في قالبه سبيكة واحدة، يقول: «واعلمْ أنَّ مَثَلَ واضِعِ الكلام مثَلُ مَنْ يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضةِ فيُذيبُ بعضَها في بعضٍ حتى تَصير قطعةً واحدةً»[٤].

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: ١/ ٦٧.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٣٩.

(٣) السابق نفسه: ٩٣.

(٤) السابق نفسه: ٤١٢-٤١٣.

ثم جاء ابن منقذ (٥٨٤هـ) فبيَّن لنا السبك والحبك في تماسك الشعر فقال: «وأمَّا السبك فهو أنْ تتعلق كلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره... ولهذا قال: خير الكلام المحبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض»[١].

وفي مثل هذا المسلك سار مفسرون، يقول الإمام الرازي (٦٠٤هـ) في سورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أنَّ القرآن كما أنَّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته»[٢]، بل إنّ منهم من اهتموا بالقرآن جملة وتفصيلاً، ودقّقوا في ترابط معانيه بألفاظه، وآخره بأوله، آية آية وسورة سورة، مفتتَحاً ببسملة الفاتحة مختتَماً بالمعوذتين كالسورة الواحدة، بل إنَّ علماء الضبط أجمعوا على أنَّ القرآن كله مبني على الوصل، ما عدا الحروف المقطعة، والقراءة فيه موصولة، ليس فيها وقف واجب، يقول ابن الجزري (٨٣٣هـ):

«وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ وَقْفٍ وَجَبْ وَلاَ حَرَامٌ غَيْرُ مَا لَهُ سَبَبْ»[٣].

فالقرآن نظم واحد تكاملت آياته وتعانقت سوره، خصص له العلماء علماً أسموه بعلم المناسبة، يقول فيه الشيخ ولي الدين الملوي (٧٧٤هـ): «والذي ينبغي في كلِّ آية أنْ يبحث أول كلِّ شيء عن كونها تكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جَمّ. وهكذا في السور يُطلب وجْهُ اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[٤].

(١) ابن منقذ، البديع في نقد الشعر: ١٦٣.
(٢) الرازي، التفسير الكبير: ٧/ ١٣٩.
(٣) ابن الجزري، منظومة المقدّمة: ٨.
(٤) السيوطي، معترك الأقران: ١/ ٤٤.

أولاً- الاتساق النصي وأدواته:

١. تعريف الاتساق النصي:

إنَّ ما ذكره الجرجاني من اتحاد أجزاء الكلام وتداخل بعضها في بعض، وكذلك ما ذكره ابن منقذ وغيرهما من قضايا نظم الخطاب وسبك النص وتعالق الكلمات بعضها ببعض، وحبك الكلام وأخْذِ بعضه برقاب بعض، كلُّ ذلك غير بعيد عما جال في خاطر مايكل هاليدي ورقية حسن حين ربطا مفهوم النص بإحكام العلاقات الدلالية بين أجزائه؛ فعرّفا الاتساق بأنَّه: «مفهوم دلالي، ويقصد به العلاقات المعنوية الموجودة داخل النص والتي تعرّفه كنصّ»[(١)]، فلولا ترابط أجزاء الكلام واحتياج بعضها لبعض لما كان النص نصاً.

وتَحقّق الاتساق في النص مرهون بانتظام مفرداته لتُكوِّن جُملَه، ثم بترابط جُمله لتكوّن فِقرَه، ثم بتعالق فِقَره لتكوّن نصاً كالجسد الواحد، إذا اشتكت منه جملة أو فقرة اختل لها نظام سائر النص بالغموض والاضطراب، وكلّما تعالقت أجزاء النص، وافتقرت أبعاضه إلى أبعاض أُخَر كان النسج أحكم والتماسك أشد وأمتن.

٢. أدوات الاتساق النصي

ويتحقق اتساق النص عند هاليدي ورقية حسن بوسائل خمس، هي: الإحالة، والاستبدال، والحذف، والربط، والاتساق المعجمي[(٢)]؛

- فأمَّا الإحالة فمنها عود الضمائر على ما يفسِّرها؛ تبياناً لمقاصد الكلام وعناصر الخطاب، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحاقة: ٦-٧]، فواو الجماعة في (أُهْلِكُوا)، والضمير في (عَلَيْهِمْ) يُحيلان على (عاد)، وضمير الغائبة في (سَخَّرَهَا) يعود على (رِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)، ولو تكرر ذكر (عاد)

(١) بلحوت، الإحالة: ٧٥.

(٢) السابق نفسه: ٦٥.

ثلاث مرات، وذكْرُ (رِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) مرتين لَمّحه السامع ونفر عنه القارئ، ولو حذفت الضمائر لانفرط عقد المعنى، واختل نظام المبنى، ولما كان ثمة اتساق.

- وأمَّا الإبدال أو الاستبدال فهو « تعويض عنصر في النص بعنصر آخر»[1]، ومن الاستبدال قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١... كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ... فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١-١٥]؛ إذ استبدل بـ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ القارعة والواقعة.

- وأمَّا الحذف فمنه حذفان في قوله تعالى: (لَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) [الحاقة: ٣٨-٣٩]؛ إذ الأصل أنْ يقال: فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (ـــــه) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (ـــــه)، فحذف الضميرين اختصاراً، ووجب استحضارهما لغةً وعقلاً، فدلّ المذكور على المحذوف اتساقاً وانسجاماً.

- وأمَّا الربط فمنه الربط بالعطف، كما في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُـــهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢].

- وأمَّا الاتساق المعجمي

- فمنه تكرار اللفظ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣]،

- ومنه مرادفة الخطيئة بالمعصية، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّـــهِمْ﴾ [الحاقة: ٩-١٠]،

- ومنه توكيد المرة بالواحدة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣-١٤]،

(١) بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب: ٨٣.

- ومنه التضاد، كالتضاد بين العلو والدنو في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٢-٢٣]،

- ومنه التلازم، كالتلازم بين الأكل والشرب في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ [الحاقة: ٢٤].

ففي هذه السورة الكريمة توافرت كلُّ أدوات الاتساق النصي وفق معايير المحدَثين، ولا سيما هاليدي ورقية حسن، غير أنَّنا في هذه الدراسة سنخصص حديثنا للإحالة دون غيرها من أدوات الاتساق.

٢/ أ. تعريف الإحالة:

يمكن تعريف الإحالة بأنَّها علاقة دلالية تفسيرية بين عنصرين من عناصر الخطاب، يقول هاليدي ورقية حسن في بيان المصطلح لديهما: «تتوفر كلُّ لغة على عناصر تملك خاصية الإحالة بالمعنى الذي نخصصه لهذا المصطلح، أي أنَّها لا تكتفي بذاتها في تأويلها دلاليّاً بل تحيل على شيء آخر من أجل تأويلها»[(١)].

٢/ ب. أنواع الإحالة:

تنقسم الإحالة عند مايكل هاليدي ورقية حسن إلى نوعين رئيسيين، هما[(٢)]:

الأول: الإحالة المقامية أو الخارجية؛ إذ تُحيل على عنصر خارج النص، فتسهم في بناء النص لربطها اللغة بسياق المقام، كضمائر المتكلم والمخاطب؛ غير أنَّها لا تسهم في اتساق النص وتماسكه؛ لأنَّها تؤثر في النص من خارجه، ولا ترتبط بكلمات في النص تعود عليها الضمائر.

والثاني: الإحالة النصية أو الداخلية، وهي تُحيل على عنصر لغوي داخل النص، كضمائر الغائب، فتقوم بدور فعال في ربط مكونات النص وتماسك أجزائه.

(١) بلحوت، الإحالة: ١١٩.

(٢) السابق نفسه: ١٢٢.

ويتفرع الثاني إلى قبلية وبعدية بحسب الإحالة على عنصر سابق أو لاحق، كما هو موضّح في الشكل (١):

الشكل (١)	أنواع الإحالة ← المقامية — خارج النص / النصية — داخل النص ← سابق: — قبلية / لاحق: — بعدية

٢/ ج. أدوات الإحالة:

تتحقق الإحالة بأدوات ذكرها هاليدي ورقية حسن عقب بيان مصطلح الإحالة لديهما، بقولهما: «وتتمثل هذه العناصر في الإنجليزية في الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة»[1].

وقد اجتمعت هذه الأدوات في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: ٣٥]؛ إذ لا يمكن فهم المقصود بالضمير والزمان والمكان في الآية من دون ربطها بمفسِّرات سبق ورودها في النص:

١. فالضمير في (لَهُ) يفسِّره قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥].

٢. و(ٱلْيَوْم) يعيِّنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨].

٣. والمكان المشار إليه بـ(هَٰهُنَا) يبيِّنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١].

٤. أمَّا المقارنة فنجدها في نفي الصديق الحميم في هذا اليوم مع استحضار النقيض ذهنياً بإثبات الحميم في الأيام الخالية، أضف إلى ذلك المقارنة الكبرى في السورة بين ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ و ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وحال كلٍّ منهما ومآله.

والتزاماً بعنوان البحث سنقصر الحديث على الإحالة بالضمير.

(١) السابق نفسه: ١١٩.

* **الإحالة بالضمير:**

يلخص أبو حيان أثر الإحالة بالضمير في جعل أجزاء الجملة جملةً، بقوله: «تَقُولُ: (هِنْدٌ عَجِبْتُ مَنْ ضَرْبِهَا زَيْداً) فَتَجُوزُ الْمَسْأَلَةُ، وَلَوْ قُلْتَ: (هِنْدٌ عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبِ زَيْداً) لَمْ تَجُزْ»[1]؛ فبالضمير اكتسب القول صفة الجملة وجازت المسألة، وبإسقاطه سقطت، ولم تَجُزْ، وعادت الجملة مِزَقاً.

ويُعرّف ابن مالك الضمير بقوله: «هو الموضوع لتعيين مسمّاه مشعراً بتكلّمه أو خطابه أو غيبته»[2]، والمراد بالتعيين جعل المفهوم مُعايناً للسامع أو في حكم المُعاين، والمقصود بمسمّى الضمير ما يعود عليه ويفسِّره، وذكر الإشعار بالتكلم أو الخطاب أو الغيبة يبين أنواع الضمائر غياباً وحضوراً، والحضور تكلّماً وخطاباً.

وفي كلِّ إحالة من هذا النوع لا بدَّ من مُحال (وهو الضمير)، ومُحال عليه (وهو مفسِّر الضمير)، وضمير المُتَكَلّم والمخاطب يُفسِّرهما المُشَاهدَة، أمَّا ضمير الغائب فلا مشاهدة تدل عليه؛ ولذلك يحتاج إلى مفسِّر.

وأصل الْمُفَسِّر أَنْ يكون مقدَّماً لِيُعلَم الْمَعْنِيّ بالضمير عِنْد ذكره بعد مفسِّره، وَأَنْ يكون الْأَقْرَب إلّا إنْ دلّ على غيره دليل، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فضمير ذُرِّيَّته عَائِد على إِبْرَاهِيم وَهُوَ غير الْأَقْرَب؛ لِأَنَّهُ الْمُحدّث عَنْهُ من أول الْقِصَّة إِلَى آخرهَا[3]، وكقوله سبحانه: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]؛ فالضميرُ المستترُ في (جَعَلَكُمْ) عائدٌ إلى الله، لا إلى الرسول[4].

(١) الأندلسي، البحر المحيط: ٦/ ٤١٧.
(٢) ابن مالك، شرح التسهيل: ١/ ١٢٠.
(٣) السيوطي، همع الهوامع: ١/ ٢١٨-٢١٩.
(٤) الغلاييني، جامع الدروس العربية: ١/ ١٢٦.

ومفسِّر الضمير كما يقول ابن مالك: «إما مُصَرَّحٌ بلفظه، أو مُسْتَغنى عنه بحضور مدلوله حِساً أو علْماً، أو بِذِكْرِ ما هو له جزءٌ أو كلٌّ أو نظيرٌ، أو مُصاحِبٌ بوجهٍ ما»[1].

ويفصّل السيوطي هذا الإجمال بقوله: ثُمَّ الْمُفَسِّر إِمَّا مُصرح بِلَفْظِهِ وَهُوَ الْغَالِب كزيد لَقيته، وَقد يُستغنى عَنهُ بِمَا يدل عَلَيْهِ حسّاً، نَحْو: ﴿قَالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، و﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ [القَصَص: ٢٦]؛ إِذْ لم يتَقَدَّم التَّصْرِيح بِلَفْظ زليخا ومُوسَى لكَوْنهمَا كَانَا حاضرين، أَو علماً نَحْو: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] أَي الْقُرْآن، أَو جزئه أَو كُله نَحْو: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤]، أَي المكنوزات الَّتِي بَعْضهَا الذَّهَب وَالْفِضَّة، وَقَوله:

(أماويّ مَا يُغني الثَّرَاءُ عَن الْفَتى إِذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضاق بهَا الصدرُ)

أَي النَّفس الَّتِي هِيَ بعض الْفَتى، وَجعل من ذَلِك ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، أَي الْعدْل الَّذِي هُوَ جُزْء مَدْلُول الْفِعْل؛ لِأَنَّهُ يدل على الْحَدث وَالزَّمَان، أَو نَظِيره، نَحْو: (عِنْدِي دِرْهَم وَنصفه)، أَي وَنصف دِرْهَم آخر، أَو مصاحبه بوَجْه مَا، كالاستغناء بمستلزَم عَن مُسْتَلْزِم، نَحْو: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ضمير (إِلَيْهِ) عَائِد إِلَى الْعَافِي الَّذِي استلزمه عُفِيَ[2].

وأضاف ناظر الجيش للمصاحبة صورتين أخريين[3]: **إحداهما**: الاستغناء بما يصاحب المفسَّر ذِكراً أو استحضاراً، كذكر الخير متلوّاً بضمير اثنين للمذكور وضده، كقول الشاعر:

وما أدري إذا يمّمت أمراً... أريد الخير أيهما يليني

فأعاد الضمير على الشرّ أيضاً وإنْ لم يُذكر؛ لأنّه يصاحب الخير في الذكر والاستحضار. **والثانية**: الاستغناء بذكر المصاحِب في الاستحضار لا في الذكر،

(١) ابن مالك، شرح التسهيل: ١/ ١٥٦.

(٢) انظر: السيوطي، همع الهوامع: ٢١٩.

(٣) انظر: ناظر الجيش، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد: ١/ ٥٤١.

كقولـه تعـالى: ﴿إِنَّـا جَعَلْنـا فِـي أَعْنـاقِهِـمْ أَغْـلالاً فَهِـيَ إِلَـى الْأَذْقـانِ﴾ [يـس: ٨]. (فَهِـيَ) عائـدة عـلى الأيـدي؛ لأنَّهـا تصاحـب الأعنـاق في الأغـلال؛ فأغنـى ذكـر الأعنـاق عـن ذكرهـا. ومثلـه قولـه تعـالى: ﴿وَمـا يُعَمَّـرُ مِـنْ مُعَمَّـرٍ وَلا يُنْقَـصُ مِـنْ عُمُـرِهِ﴾ [فاطـر: ١١] أي مـن عمـر غـير المعمَّـر، فأعيـد الضمـير عـلى غـير المعمَّـر؛ لأنَّ ذكـر المعمَّـر مذكِّـر بـه لتقابلهـما، فـكان مصاحبـه في الاسـتحضار الذهنـي.

ثانياً- سورة الحاقة:

أ- أغراضها:

اشتملت هذه السورة الكريمة على:

- تعظيم يوم القيامة.
- وتذكير المكذبين بما حلّ بالمكذبين من قبلهم.
- والتذكير بنعمة الله على البشر؛ إذ أبقى نوعهم بالإنجاء من الطوفان.
- ثم تصوير ما يحدث للكون إيذاناً بانتهاء الدنيا وابتداء الآخرة.
- وأنواع من الجزاء وتفاوت الناس فيه.
- وتنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن مطاعن المشركين.
- وتنزيه الله تعالى عن أنْ يقرَّ مَن يتقوّل عليه.
- وإنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن.

ب- ضمائرها:

تتألـف سـورة الحاقـة مـن (٢٥٨) مئتـين وثـمان وخمسـين كلمـة بحسـب الرسـم العثـماني، وتحتـوي عـلى (١٠٢) مئـة واثنـين مـن الضمائـر، أي بنسـبة مئويـة مقدراهـا (٣٩,٥٣٪)، وهـي نسـبة عاليـة تبـين أهميـة الضمائـر في بنـاء الخطـاب في هـذه السـورة الكريمـة، ومـما لا شـك فيـه أنَّ إحـكام النـص وتماسـك البنـاء مرهـون بتوزيـع الضمائـر وإحـكام نسـجها عـلى اختـلاف أنواعهـا بـين ضمائـر الغيبـة والحضـور، والاسـتتار

والظهور، تذكيراً وتأنيثاً، في الإفراد والتثنية والجمع، مع اختلاف بنائها وتنوع إعرابها، وفيما يلي بيان بالضمائر والكلمات المرتبطة بالضمائر بحسب ترتيب ورودها في السورة مع مراعاة تكرار الكلمات المرتبطة بضميرين:

(أَدْرَىٰكَ، أَدْرَىٰكَ، أُهْلِكُواْ، أُهْلِكُواْ، سَخَّرَهَا، سَخَّرَهَا، عَلَيْهِمْ، تَرَى، فِيهَا، كَأَنَّهُمْ، تَرَىٰ، لَهُم، قَبْلَهُۥ، عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، أَخَذَهُمْ، إِنَّا، حَمَلْنَٰكُمْ، حَمَلْنَٰكُمْ، نَجْعَلَهَا، نَجْعَلَهَا، لَكُمْ، تَعِيَهَآ، دُكَّتَا، هِيَ، أَرْجَآئِهَا، رَبُّكَ، فَوْقَهُمْ، تُعْرَضُونَ، مِنكُمْ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، هَآؤُمُ، ٱقْرَءُواْ، كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، هُوَ، قُطُوفُهَا، كُلُواْ، ٱشْرَبُواْ، أَسْلَفْتُمْ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَهْ، أَدْرِ، حِسَابِيَهْ، لَيْتَهَا، كَانَتِ، عَنِّي، مَالِيَهْ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ، خُذُوهُ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، صَلُّوهُ، ذَرْعُهَا، ٱسْلُكُوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُ، يَأْكُلُهُۥ، أُقْسِمُ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ(ــه)، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ(ــه)، إِنَّهُۥ، هُوَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، تَقَوَّلَ، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، مِنْهُ، قَطَعْنَا، مِنْهُ، مِنكُم، عَنْهُ، إِنَّهُۥ، إِنَّا، نَعْلَمُ، مِنكُم، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، سَبِّحْ، رَبِّكَ).

ثالثاً- أقسام الضمير في السورة:

تشتمل السورة الكريمة كما أسلفنا على (١٠٢) مئة واثنين من الضمائر، يمكننا أنْ نحصيها ونقلّب النظر فيها من جهات عدّة، كالعدد، والجنس، والغيبة والحضور، وكذلك الاستتار والظهور.

١. من جهة العدد:

تبيّن بالإحصاء أنّ ضمائر السورة تشمل أنواع العدد إفراداً وتثنية وجمعاً؛ إذ جاء فيها (٦٥) خمسة وستون من الضمائر تدل على المفرد في جميع حالاته اتصالاً وانفصالاً، حضوراً وغياباً، تذكيراً وتأنيثاً، بنسبة مقدارها (٧٣ , ٦٣٪)، يليها في الترتيب (٢٨) ثمانية وعشرون ضميراً يدل على الجمع، بنسبة مقدارها (٤٥ , ٢٧٪)، ثم (٨) ثمانية ضمائر تدل على المفرد المعظَّم جل جلاله، بنسبة مقدارها (٨٤ , ٧٪)، ثم ضمير واحد يدل التثنية، بنسبة مقدارها (٩٨ , ٠٪)، كما هو مبيَّن في الشكل (٢).

الشكل (٢)

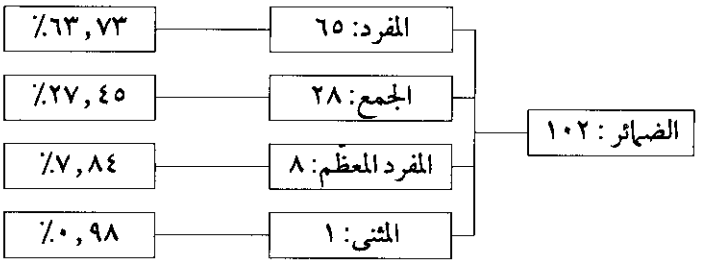

وفيما يلي الجدول (١) يبيّنها مفصّلة بحسب نوعها وتعدادها وترتيبها في السورة الكريمة:

الجدول (١): الضمائر من جهة العدد

النوع	السياق	العدد	الكلي
مفرد	أَدْرَيْكَ، أَدْرَيْكَ، سَخَّرَهَا، سَخَّرَهَا، تَرَى، فِيهَا، تَرَىٰ، قَبْلَهُۥ، أَخَذَهُمْ، نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ، هِيَ، أَرْجَآئِهَاۚ، رَبُّكَ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، هُوَ، قُطُوفُهَا، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَهْ، أَدْرِ، حِسَابِيَهْ، لَيْتَهَا، كَانَتِ، عَنِّي، مَالِيَهْۜ، عَنِّي، سُلْطَنِيَهْ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ذَرْعُهَا، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُۥ، يَأْكُلُهُۥ، أُقْسِمُ، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، إِنَّهُۥ، هُوَ، تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، سَبِّحْ، رَبِّكَ.	٦٥	١٠٢
جمع	أُهْلِكُواْ، أُهْلِكُواْ، عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُمْ، لَهُم، عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، حَمَلْنَٰكُمْ، لَكُمْ، فَوْقَهُمْ، تُعْرَضُونَ، منكُمْ، هَآؤُمُ، ٱقْرَءُواْ، كُلُواْ، ٱشْرَبُواْ، أَسْلَفْتُمْ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، مِنكُم، مِنكُم.	٢٨	
مفرد معظّم	إِنَّا، حَمَلْنَٰكُمْ، نَجْعَلَهَا، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، قَطَّعْنَا، إِنَّا، نَعْلَمُ.	٨	
مثنى	دُكَّتَا.	١	

واللافت في هذا الإحصاء طغيان الإفراد في الضمائر على الجمع والتثنية، غير أنَّ المتأمل في السياق والدلالة يدرك أنَّ كثيراً منها لا يُراد به الإفراد حقيقة؛ وإنَّما جيء به صلة للاسم الموصول (مَنْ) وقد راعى فيه البيان القرآني إفراد لفظه فوَصَله بإفراد (أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، هُوَ)، والمراد كلُّ من اتَصف بهذا الوصف وقال ذلك القول؛ ولذلك أعقبه بمراعاة الجمع في الجزاء فقال (كُلُوا۟، ٱشْرَبُوا۟، أَسْلَفْتُمْ)، وفي الجمع ما فيه من نعيم الأنس بالجماعة مع ما في الجنة من نعيم، وقُل مثل ذلك في (مَنْ) (أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَهْ، أَدْرِ، حِسَابِيَهْ، عَنِّي، مَالِيَهْ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ) غير أنَّ الجزاء كان بالإفراد (خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، لا يُؤْمِنُ، ولا يَحُضُّ، لَهُ)، وفي الإفراد ما فيه من كرب الوحشة والعزلة مع ما في الجحيم من عذاب.

والحاصل أنَّنا إذا أضفنا إلى ضمائر الجمع ضمائرَ المفرد التي جاءت في صلة (مَنْ) مراعاة للفظها والمراد الجمع في معناها -فإنَّ الغلبة تكون لضمائر الجمع؛ إذ يصبح مجموعها (٦٠) ستين ضميراً، أي بنسبة (٨٢, ٥٨ ٪) من مجموع الضمائر، على النحو المبيَّن في الجدول (٢)، ولا غرو في غلبة الجمع على الإفراد؛ إذ الخطاب في السورة عموماً دعوة للناس كافة ليكونوا مع القرآن والنبي إيماناً وتصديقاً، ويُجلي لهم الحاقة ترغيباً وتحذيراً.

الجدول (٢)

النوع	السياق	العدد
مفرد حقيقي	أَدْرَىٰكَ، أَدْرَىٰكَ، سَخَّرَهَا، تَرَى، فِيهَا، تَرَىٰ، قَبْلَهُۥ، أَخَذَهُمْ، نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ، هِيَ، أَرْجَآئِهَا، رَبِّكَ، قُطُوفُهَا، لَيْتَهَا، كَانَتِ، ذَرْعُهَا، يَأْكُلُهُۥ، أُقْسِمُ، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، إِنَّهُۥ، هُوَ، تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، سَبِّحْ، رَبِّكَ.	٣٣

النوع	السياق	العدد	
مفرد يراد به الجمع	أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، هُوَ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَهْ، أَدْرِ، حِسَابِيَهْ، عَنِّي، مَالِيَهْ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُۥ.	٣٢	٦٠
جمع	أُهْلِكُواْ، أُهْلِكُواْ، عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُمْ، لَهُم، عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، حَمَلْنَٰكُمْ، لَكُمْ، فَوْقَهُمْ، تُعْرَضُونَ، مِنكُمْ، هَآؤُمُ، ٱقْرَءُواْ، كُلُواْ، ٱشْرَبُواْ، أَسْلَفْتُمْ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، مِنكُم، مِنكُم.	٢٨	

٢. من جهة الجنس:

أمَّا من جهة الجنس تذكيراً وتأنيثاً فقد غلبت ضمائر المذكر على ضمائر المؤنث في السورة الكريمة؛ إذ اشتملت السورة على (٩١) واحد وتسعين ضميراً مذكراً، أي بنسبة (٨٩,٢٢٪)، مقابل (١١) أحد عشر ضميراً للمؤنث، أي بنسبة (١٠,٧٨٪)، كما هو مبيَّن في الشكل (٣).

الشكل (٣)

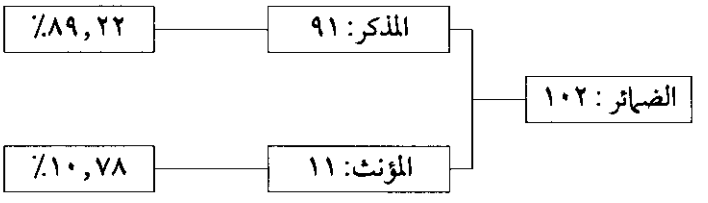

وفيما يلي توزيع ضمائر المذكر والمؤنث في السورة بحسب ورودها، كما هو مبيَّن في الجدول (٣):

الجدول (٣): الضمائر من جهة الجنس			
الجنس	السياق	العدد	الكلي
مذكر	أَدْرَيْكَ، أَدْرَيْكَ، أُهْلِكُواْ، أُهْلِكُواْ، سَخَّرَهَا، عَلَيْهِمْ، تَرَى، كَأَنَّهُمْ، تَرَىٰ، لَهُم، قَبْلَهُۥ، عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، أَخَذَهُمْ، إِنَّا، حَمَلْنَٰكُمْ، حَمَلْنَٰكُمْ، نَجْعَلَهَا، لَكُمْ، رَبُّكَ، فَوْقَهُمْ، تُعْرَضُونَ، مِنكُمْ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، هَآؤُمُ، ٱقْرَءُواْ، كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، هُوَ، كُلُواْ، ٱشْرَبُواْ، أَسْلَفْتُمْ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَهْ، أَدْرِ، حِسَابِيَهْ، عَنِّي، مَالِيَهْ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ، خُذُوهُ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُۥ، يَأْكُلُهُۥ، أُقْسِمُ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، إِنَّهُۥ، هُوَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، تَقَوَّلَ، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، مِنْهُ، قَطَعْنَا، مِنْهُ، مِنكُم، عَنْهُ، إِنَّهُۥ، إِنَّا، نَعْلَمُ، مِنكُم، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، سَبِّحْ، رَبِّكَ.	٩١	١٠٢
مؤنث	سَخَّرَهَا، فِيهَا، نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ، دُكَّتَا، هِيَ، أَرْجَآئِهَا، قُطُوفُهَا، لَيْتَهَا، كَانَتِ، ذَرْعُهَا.	١١	

وبتأمل الضمائر المؤنثة نجد أنَّه لم يدل أي منها على العقلاء، بل شملت الريح، والديار أو الليالي والأيام، والأرض والجبال والسماء، والجنة، والموتة

الأولى، وسلسلة العذاب، وهذا يعني أنَّ كثيراً من ضمائر المذكر ليست مقصورة على التذكير فقط، وإنَّما تجري على سنن العرب في كلامها من تغليب المذكر في الخطاب والمراد الجنسان معاً، وما الحاقة إلَّا ما يحيق بالمكلّفين من الثقلين ذكوراً وإناثاً، جمعاً وإفراداً؛ فجيء للتعبير عنهم بقوله تعالى: (أُهلِكُواْ، عَصَوْاْ، أَخَذَهُمْ، حَمَلْنَكُم، تُعْرَضُونَ، حِسَابِيَهْ، هُوَ، كُلُواْ، اشْرَبُواْ، أَسْلَفْتُمْ) فشمل بالتذكير الجنسين تغليباً واختصاراً.

٣. من جهة الغياب والحضور:

وأمَّا من جهة الغياب والحضور فقد ربَت ضمائر الغيبة على نظيرتها قليلاً؛ فقد كان منها (٥٤) أربعة وخمسون للغائب، و(٤٨) وثمانية وأربعون ضميراً للحاضر، أي بنسبة (٥٢,٩٤ ٪) للغياب مقابل (٤٧,٠٦ ٪) للحضور، كما هو مبيَّن في الشكل (٤):

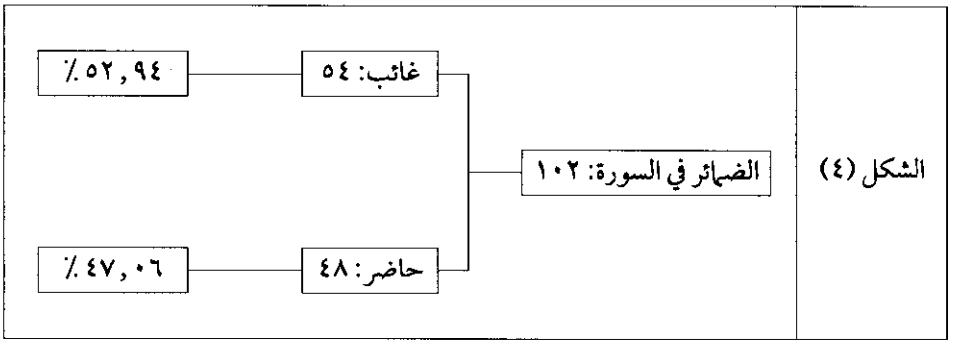

٣/ أ. الغائب:

بلغت ضمائر الغائب كما أسلفنا (٥٤) أربعة وخمسين ضميراً من أصل (١٠٢) مئة واثنين، أي بنسبة (٥٢,٩٤ ٪)، حاز المفرد المذكر منها حصة الأسد؛ إذ بلغ عدد ضمائره (٣٤) أربعة وثلاثين ضميراً على اختلاف حالاته اتصالاً وانفصالاً، ظهوراً واستتاراً، ثم يليه المفرد المؤنث (١٠) عشرة ضمائر، ثم جمع المذكر (٩) تسعة ضمائر، ثم المثنى المؤنث ضمير واحد.

وقد أحكمت هذه الضمائر نسج النص وربط أجزائه بشبكة متسقة من العلاقات النصّية والخِطابية؛ إذ توزعت بين الماضي والحاضر والمستقبل، وتنوعت بين إخبار ووصف وتلطّف؛ فكان ضمير الغائب عمدةً في الإخبار عن أحداث مضت وأحداث ستأتي كما في قوله: (أُهْلِكُواْ، سَخَّرَهَا، عَلَيْهِمْ، فِيهَا، كَأَنَّهُمْ، لَهُم، قَبْلَهُۥ، عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ، دُكَّتَا، هِيَ، أَرْجَآئِهَآ، فَوْقَهُمْ) وكذلك في الإخبار عن حاضر مشاهَد وغير مشاهَد كما في قوله: فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (ـــه) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (ـــه)، وكان كذلك وصفاً وتعظيماً للقرآن مصحوباً بـ (إنَّ) وغير مصحوب في خمسة مواضع.

وغير خافٍ أنَّ السورة كلّها تخاطب قارئها وسامعها تنادي قلبه للإيمان، ولما غلب على مشاهد القيامة سوء العذاب لم يشأ البيان الرباني أنْ يخاطب سامعيه وقارئيه بمثل (إنَّك كنت لا تؤمن بالله العظيم ولا تحضّ على طعام المسكين فليس لك اليوم ههنا حميم)، بل آثرت ضمير الغائب تلطّفاً بالعبارة تبشيراً في الشطر الأول (أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، هُوَ، قُطُوفُهَا)، وتحذيراً في الثاني (أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، لَيْتَهَا، كَانَت، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ذَرْعُهَا، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُ، يَأْكُلُهُۥ)، ومثل ذلك بل فوق ذلك التلطّف بالنبي صلّى الله عليه وسلّم رأفةً به وتكريماً له بالعدول إلى الغائب عن مباشرته بخطاب التهديد في (تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ)؛ فالرؤوف الرحيم الذي قدّم العفو على العتاب في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] لهو أرحم بعبده من أنْ يصدع قلبه بمثل: ولو تقوّلت علينا بعض الأقاويل لأخذنا منك باليمين ثمّ لقطعنا منك الوتين فما منهم مّن أحد عنك حاجزين. وفيما يلي الجدول (٤) يبين تلك الضمائر وأعدادها وسياقاتها:

الجدول (٤): ضمائر الغائب			
الضمير	العدد	السياق	الكلي
هو	٣٤	أَدْرَيْكَ، سَخَّرَهَا، قَبْلَهُ، أَخَذَهُمْ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، بِيَمِينِهِۦ يَقُولُ، هُوَ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُ، يَأْكُلُهُۥ، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، إِنَّهُۥ، هُوَ، تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ.	٥٤
هي	١٠	سَخَّرَهَا، فِيهَا، نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ، هِيَ، أَرْجَآئِهَا، قُطُوفُهَا، لَيْتَهَا، كَانَتِ، ذَرْعُهَا.	
هم	٩	أُهْلِكُواْ، أُهْلِكُواْ، عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُمْ، لَهُم، عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، فَوْقَهُمْ.	
هما	١	دُكَّتَا.	

٣/ب. الحاضر:

أمَّا ضمائر الحضور فبلغ عددها (٤٨) ثمانية وأربعين ضميراً، وهي تنقسم إلى نوعين من الحضور، أحدهما ضمائر المخاطب، وثانيهما ضمائر المتكلم.

١) المخاطب:

اقتصرت السورة في بنائها على خطاب الذكور جمعاً وإفراداً بـ (٢٥) خمسة وعشرين ضميراً، رَبا فيها خطاب الجمع على المفرد ثلاثة أضعاف؛ إذ بلغ الأول (١٩) تسعة عشر ضميراً، وبلغ ضمير المفرد المخاطب (٦) ستة ضمائر فقط، والخطاب فيها موجَّه للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا غرو في ذلك إذ أعداد الضمائر هذه، جمعاً وإفراداً، متسقة مع أغراض السورة من خطاب الناس

عموماً تذكيراً وتحذيراً، ومن الشهادة للرسول تنزيهاً وتبليغاً، وفيما يلي توزيع ضمائر الخطاب في الجدول (٥) أدناه:

الجدول (٥): ضمائر المخاطب			
الضمير	العدد	السياقات	الكلي
أنتم	١٩	حَمَلْنٰكُمْ، لَكُمْ، تُعْرَضُونَ، منكُمْ، هَآؤُمُ، ٱقْرَءُواْ، كُلُواْ، ٱشْرَبُواْ، أَسْلَفْتُمْ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، مِنكُم، مِنكُم.	٢٥
أنت	٦	أَدْرَىٰكَ، تَرَى، تَرَىٰ، رَبِّكَ، سَبِّحْ، رَبِّكَ.	

٢) المتكلم:

أمّا ضمائر التكلّم فقد جاءت خلافاً للمخاطَب خلواً من ضمير الجمع (نحن)، مقتصرةً على المفرد بـ (١٥) خمسة عشر ضميراً، والمفرد المعظَّم بالنون بـ (٨) ثمانية ضمائر، كما هو مبيَّن في الجدول (٦) أدناه:

الجدول (٦): ضمائر المتكلّم			
الضمير	العدد	السياق	الكلي
أنا	١٥	كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَهْ، أَدْرِ، حِسَابِيَهْ، عَنِّي، مَالِيَهْ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ، أُقْسِمُ.	٢٣
(نا) العظمة	٨	إِنَّا، حَمَلْنٰكُمْ، نَجْعَلَهَا، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، قَطَّعْنَا، إِنَّا، نَعْلَمُ.	

بيّنا قبلُ أنَّ التذكير في كثير من الضمائر غير مقصور على المذكر، وإنَّما جيء به على التغليب، فلا عجب أنْ نرى الآن طغيان ضمير الغائب على الحاضر، والمفرد منه على غيره، بعد أنْ عرفنا أنَّ كثيراً من الصيغ دلت على الإفراد مراعاة للفظ (مَنْ)، غير أنَّها كانت تعني

الجمع مراعاة للمعنى، فإذا أضفنا إلى هذا وذاك مجموع ضمائر (هو) و(هم) الذي يبلغ (٤٣) ثلاثة وأربعين ضميراً، وتأملنا معظم سياقاتها لأدركنا أنَّ ضمير الغائب كان وسيلة للتأثير في المخاطبين وأداة لوعظهم في الغابرين إضافة إلى وظيفته النصية في ربط أجزاء المعاني واتساقها؛ فقد جاءت قصص السابقين وهي من الغيب الماضي في (أُهْلِكُواْ، أُهْلِكُواْ، سَخَّرَهَا، سَخَّرَهَا، عَلَيْهِمْ، فِيهَا، كَأَنَّهُمْ، لَهُم، قَبْلَهُ، عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، أَخَذَهُمْ)، ثم أحداث القيامة من الغيب المستقبلي في (دُكَّتَا، هِيَ، أَرْجَآئِهَاۚ، فَوْقَهُمْ)، ثم موقف الجزاء ثواباً وعقاباً في (أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ ، يَقُولُ، هُوَ، قُطُوفُهَا، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ ، يَقُولُ، لَيْتَهَا، كَانَتِ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ذَرْعُهَا، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، لَا يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُ، يَأْكُلُهُۥ) وكلُّ ذلك الغيب، مما كان ومما سيكون، خطاب من الله عز وجلّ يتخلله ويتبعه لطف الله وقدرته وعلمه في قوله: (إِنَّا، حَمَلْنَٰكُمْ، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، قَطَعْنَا، إِنَّا، نَعْلَمُ، أُقْسِمُ)، والغاية أولاً وآخراً في النص الحامل تماسك واتساق، وفي المعنى المحمول إرشاد وتوجيه للمخاطبين، وترغيب وتحذير للسامعين في قوله: (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ، تُعْرَضُونَ، لَا تَخْفَى مِنكُمْ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، مِنكُم، مِنكُم)، فهل من أُذُنٍ وَاعِيَةٍ؟

وفيما يلي الشكل (٥) يُلخِّص الضمائر وفق قسمتها من حيث الغيبة والحضور، وترتيب الضمائر بحسب كثرة تكرارها في السورة الكريمة:

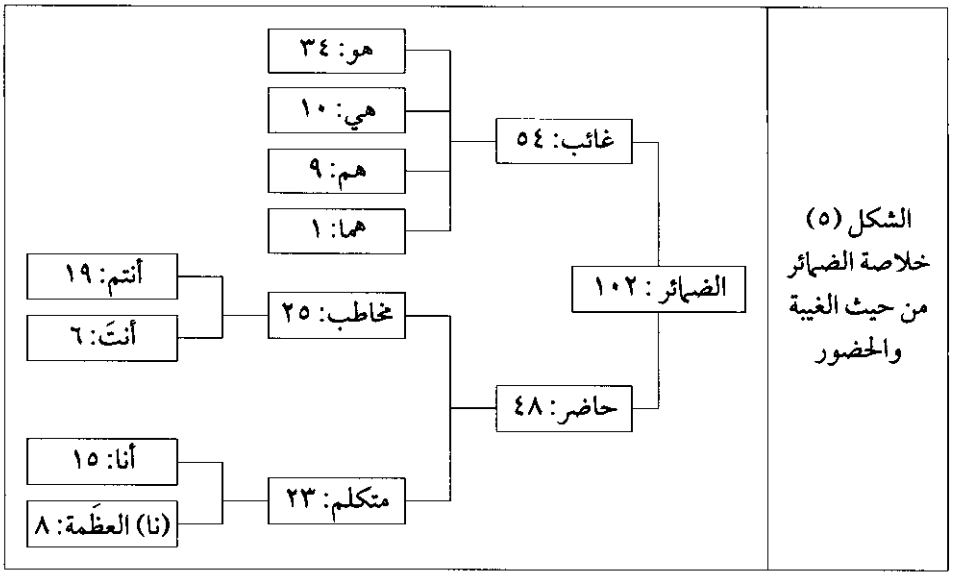

٤. من جهة الاستتار والظهور:

إذا نظرنا إلى الضمائر في السورة الكريمة من جهة الاستتار والظهور نجد أنَّ منها (٢١) واحداً وعشرين ضميراً مستتراً، يقابلها (٨١) واحد وثمانون ضميراً ظاهراً، أي بنسبة (٢٠,٥٩ ٪) للمستتر مقابل (٧٩,٤١ ٪) للظاهر، كما هو مبيَّن في الشكل (٦):

الشكل (٦)

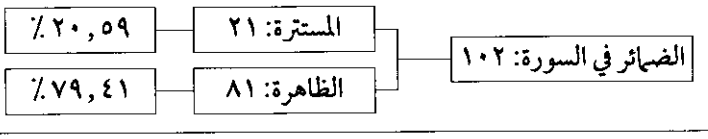

٤/ أ. الضمير المستتر:

في إحصاء الضمائر المستترة تبيّن أنَّ الضمير (هو) احتل مركز الصدارة في كثرة تكراره، إذ تكرر (١١) إحدى عشرة مرة، يليه (أنت) و(أنا) تكرّر كلّ منهما (٣) ثلاث مرات، ثم (نون العظمة) مرتين، وأخيراً (أنتم) مرة واحدة، وفيما يلي الجدول (٧) يبين تلك الضمائر وأعدادها وسياقاتها:

الجدول (٧) الضمائر المستترة

الضمير	العدد	السياق	الكلي
هو	١١	أَدْرَيْكَ، سَخَّرَهَا، أَخَذَهُمْ، أُوتِيَ، يَقُولُ، أُوتِيَ، يَقُولُ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، تَقَوَّلَ.	٢١
أنت	٣	تَرَى، تَرَىٰ، سَبِّحْ.	
أنا	3	أُوتَ، أَدْرِ، أُقْسِمُ.	
(نا) العظمة	٢	نَجْعَلَهَا، نَعْلَمُ.	
أنتم	١	هَآؤُمُ.	
هي	١	كَانَتِ.	

٤/ ب. الضمير الظاهر:

بيَّنَّا أنَّ مجموع الضمائر الظاهرة في السورة بلغ (٨١) واحداً وثمانين ضميراً، وهذه الضمائر تنقسم إلى متصلة ومنفصلة، بلغ مجموع المتصلة منها (٧٨) ثمانية وسبعين ضميراً متصلاً، يقابلها (٣) ثلاثة ضمائر منفصلة فقط، أي بنسبة (٩٦,٣٠ ٪) للمتصلة مقابل (٣,٧٠ ٪) للمنفصلة، كما هو مبيَّن في الشكل (٧):

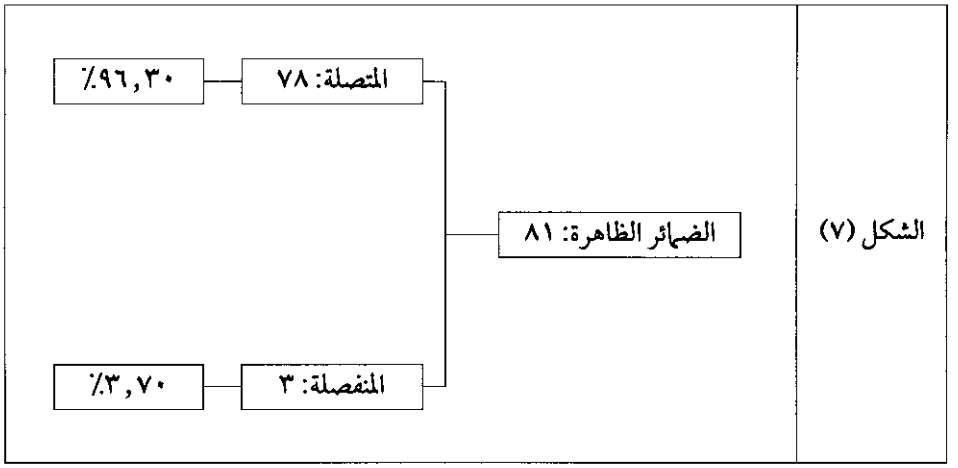

١) المتصل:

في إحصاء الضمائر المتصلة تبيّن أنَّ ضمير الغائب (هو) كان الأكثر تكراراً؛ إذ تكرر (٢١) إحدى وعشرين مرة، لم يذكر الضمير في موضعين منها، ولا بدَّ من تقديره فيهما ليربط جملة الصلة بالموصول في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾، وتقديرهما: تُبْصِرُونَ(ـهُ)، يليه في التكرار ضمير المخاطَبين (أنتم) تكرر (١٨) ثماني عشرة مرة، ثم ضمير المتكلم (أنا) تكرر (١٢) اثنتي عشرة مرة، ثم ضمير الغائبين (هم) تكرر (٩) تسع مرات، ثم الغائبة (هي) تكرر (٨) ثماني مرات، ثم ضمير المتكلم المفخَّم بنون العَظمة (٦) ست مرات، ثم ضمير المخاطَب (أنتَ) تكرر (٣) مرات، وأخيراً ضمير

الغائبتين (هما) ورد مرة واحدة، وفيما يلي الجدول (٨) يبين تلك الضمائر وأعدادها وسياقاتها:

الجدول (٨) الضمائر المتصلة

الضمير	العدد	السياق	الكلي
هو	٢١	قَبْلَهُ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، لَهُۥ، يَأْكُلُهُۥ، إِنَّهُۥ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ.	٧٨
		تُبْصِرُونَ(ـهُ)، تُبْصِرُونَ(ـهُ).	
أنتم	١٨	حَمَلْنَٰكُمْ، لَكُمْ، تُعْرَضُونَ، مِنكُمْ، اقْرَءُوا۟، كُلُوا۟، ٱشْرَبُوا۟، أَسْلَفْتُمْ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، مِنكُم، مِنكُم.	
أنا	١٢	كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، لَيْتَنِي، كِتَٰبِيَهْ، حِسَابِيَهْ، عَنِّي، مَالِيَهْ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ.	
هم	٩	أُهْلِكُوا۟، أُهْلِكُوا۟، عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُمْ، لَهُم، عَصَوْا۟، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، فَوْقَهُمْ.	
هي	٨	سَخَّرَهَا، فِيهَا، نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ، أَرْجَآئِهَا، قُطُوفُهَا، لَيْتَهَا، ذَرْعُهَا.	
(نا) العظمة	٦	إِنَّا، حَمَلْنَٰكُمْ، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، قَطَعْنَا، إِنَّا.	
أنت	٣	أَدْرَىٰكَ، رَبِّكَ، رَبِّكَ.	
هما	١	دُكَّتَا.	

وتقدُّمُ الضمير (... ـــــه) متصلاً في الكثرة يُبيّن أهميته في اتساق النص وربط عناصره، كما يؤكّد ما سبق أنْ بيّناه من عظيم أثر الضمير (هو) عموماً في ربط مكونات النص اتساقاً؛ فإنَّ (٢١) واحداً وعشرين ضميراً متصلاً تحوز نسبة (٣٨,٨٩٪) من مجموع ضمائر الغيبة الـ (٥٤) الأربعة والخمسين، وتحوز كذلك نسبة (٢٠,٥٩٪) من مجموع ضمائر السورة، وهي نسبة كبيرة، وإذا دققنا النظر وجدنا عنصرين رئيسيين يدور في فلكهما معظم هذه الضمائر المتصلة:

أولهما: (مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ)؛ إذ يعود عليه ثمانية ضمائر متصلة تُحْكِم نسيج النص اتساقاً في إحدى عشرة آية متتالية على النحو الآتي:

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا
حِسَابِيَهْ ٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ
٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا
فَٱسْلُكُوهُ ٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ
٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ٣٥

ثانيهما: وهو الأهم، ألا وهو ﴿ٱلذِّكْر﴾ الوارد في آخر سورة القلم؛ إذ يرتدّ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ من خواتيم سورة الحاقة أربع مرات متجاوزاً حدود السورة إلى مفسره في سورة القلم؛ فيتوّج الاتساقَ الداخلي بين مكونات السورة بانسجام خارجي مع السورة السابقة على النحو الآتي:

وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ
٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ٥٢
... ...
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوْلِ
كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ
ٱلْأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ
أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ
٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ
ٱلْعَظِيمِ ٥٢

يقول الفخر الرازي: «اعلم أنَّ نظير هذه الآية قوله في (الشعراء): ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾؛ فهو كلام رب العالمين لأنَّه تنزيله، وهو قول جبريل لأنَّه نزل به، وهو قول محمد لأنَّه أنذر الخلق به، فههنا أيضاً لما قال فيما تقدم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ أتبعه بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾ حتى يزول الإشكال»[1].

وبالنظر إلى وحدة الخطاب القرآني وتلاحم سوره نرى -إضافة لما رأيناه من أثر هذا الضمير في اتساق السورة داخلياً- نرى إحكام العلائق بين السورتين وعموم النص القرآني انسجاماً خارجياً؛ وذلك أنَّ الإخبار عن الضمير في جواب القسم: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ بقوله أولاً: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾، وأنَّه ثانياً (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾، وقوله ثالثاً: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾، أقول هذا الإخبار يحتّم عود الضمير على ﴿ٱلذِّكْر﴾ الوارد في آخر سورة القلم قبلها، فيربط سورة الحاقة بسورة القلم خاصة، وبالخطاب القرآني عامة:

أ- أمَّا عن سورة القلم فقد خُتمت بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾، والذكر الأول هو القرآن الكريم، أمَّا الثاني فهو (التذكرة)، يقول مقاتل: «يعني ما القرآن إلَّا تذكرة للعالمين»[2]؛ فضمائر الغيبة في أواخر سورة الحاقة تعود على هذا ﴿ٱلذِّكْر﴾ في آخر سورة القلم، وكلاهما تذكرة.

ب- وأمَّا الإخبار عنه بأنَّه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾ فهو انسجام مع آيات أخر ذُكرت في مواضع متفرقة من الخطاب القرآني تُسمّي القرآن بالذكر وتربطه بالتنزيل، من ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [سُورَةُ الحِجْرِ: ٩]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ٤٤]، وقوله:

(١) الرازي، التفسير الكبير: ٣٠/ ١١٨.

(٢) ابن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/ ٤١٢.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ: ٥٠]، ولعل أوضح انسجام ما تطابق فيه اللفظ مع نظيره في سورتين:

- إحداهما سابقة، وفيها إخبار بأنَّه تنزيل من رب العالمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ... تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سُورَةُ الوَاقِعَةِ: ٧٧-٨٠].
- والأخرى لاحقة، وفيها إخبار بأنَّه قول رسول كريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ... إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[سُورَةُ التَّكْوِيرِ: ١٩-٢٧].

وهو في المحصلة قرآنٌ كريم تنزيلٌ من رب العالمين وذكرٌ للعالمين قاله رسول كريم، نسَجت فيه الإحالة بالضمير المتصل ﴿إِنَّهُ﴾ خيوطَ شبكة من الروابط بين السور القرآنية في واحدة من البنى الكبرى في الخطاب القرآني والعقيدة الإسلامية.

٢) المنفصل:

ذكرنا أنَّ الضمائر المنفصلة لم يتجاوز تكرارها (٣) ثلاث مرات، إحداها للغائبة، واثنتان للغائب، وفيما يلي الجدول (٩) يبين تلك الضمائر وأعدادها وسياقاتها.

الجدول (٩): الضمائر المنفصلة

الضمير	ذكره	العدد	السياق	الكلي
هو	مذكور:	٢	(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ). (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ).	٣
هي	مذكور:	١	(وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ).	

وقد كان لهذه الضمائر المنفصلة رغم قلة تكرارها أثر في الدلالة والاتساق؛ فكلُّ ضمير من الضمائر المذكورة يؤسس لنمط من الدلالة بعده يختلف عما كان قبله، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ كيف يمهّد الضمير لمشهد الآخرة بعد الدنيا، ويعبّر عن ضعف بعد قوة، وانظر كذلك إلى قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ كيف بشّر بالثواب بعد الحساب، وتأمل كيف جاء في سياق النفي بعد الإثبات في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾، وأضف إلى اتساقه مع ما قبله في السورة نفسها أضف عَوْدَه على ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ في سورة القلم انسجاماً وترابطاً.

وفي الجدول (١٠) نظرة عامة على الضمائر تلخّص تقسيمها إلى مستتر وظاهر، متصل ومنفصل وتكرار كلٍّ منها.

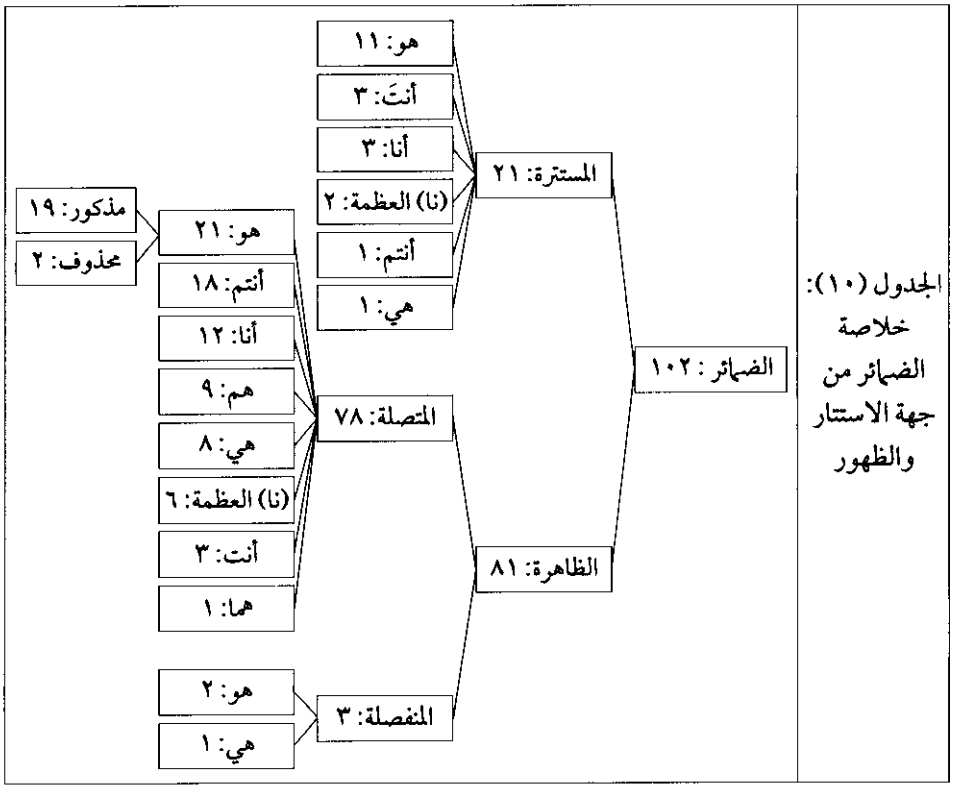

معالم إحصائية:

بعد هذه السياحة الإحصائية في ضمائر السورة الكريمة ينبغي أنْ نتوقف لنرى أيّها أكثر تكراراً وتأثيراً في رسم معالم السورة الكريمة ومشاهدها المختلفة على اختلاف حالاتها حضوراً وغياباً أو ظهوراً واستتاراً.

والحاصل أنَّ ضمير الغائب (هو) أكثر الضمائر تكراراً وفاعلية في رسم مشاهد السورة الكريمة إذ تكرر (٣٥) خمساً وثلاثين مرة بنسبة مئوية مقدارها (٩٨ , ٣٣٪)، يليه ضمير المخاطَبين (أنتم) بتكراره (١٩) تسع عشرة مرة ونسبة مئوية مقدارها (٤٥ , ١٨٪)، ثم ضمير المتكلم (أنا) بتكراره (١٥) خمس عشرة مرة ونسبة مئوية مقدارها (٥٦ , ١٤٪)، ثم ضمير الغائبة (هي) بتكراره (١٠) عشر مرات ونسبة مئوية مقدارها (٧١ , ٩٪)، ثم ضمير الغائبين (هم) بتكراره (٩) تسع مرات ونسبة مئوية مقدارها (٧٤ , ٨٪)، ثم ضمير المتكلم المعظَّم (نا) بتكراره (٨) ثماني مرات ونسبة مئوية مقدارها (٧٧ , ٧٪)، ثم ضمير المخاطَب (أنت) بتكراره (٦) ست مرات ونسبة مئوية مقدارها (٨٣ , ٥٪)،وأخيراً ضمير الغائبتين (هما) بوروده مرة واحدة ونسبة مئوية مقدارها (٩٧ , ٠٪)، وفيما يلي الجدول (١١) يبيّن أنواع الضمائر وتكرارها إجمالاً وتفصيلاً بدءاً بالأكثر تكراراً.

الجدول (١١): أنواع الضمائر وتكراراتها

نوع الضمير	الغائب	المخاطَب	المتكلّم	المستتر	المتصل	المنفصل	العدد الكلي	النسبة المئوية
هو	٣٤			١١	٢١	٢	٣٤	٣٣,٣٣
أنتم		١٩		١	١٨		١٩	١٨,٦٣

نوع الضمير	الغائب	المخاطَب	المتكلّم	المستتر	المتصل	المنفصل	العدد الكلي	النسبة المئوية
أنا			١٥	٣	١٢		١٥	١٤,٧١
هي	١٠			١	٨	١	١٠	٩,٨٠
هم	٩				٩		٩	٨,٨٢
(نا) العظمة			٨	٢	٦		٨	٧,٨٤
أنت		٦		٣	٣		٦	٥,٨٨
هما	١				١		١	٠,٩٨
المجموع	٥٤	٢٥	٢٣	٢١	٧٨	٣	١٠٢	١٠٠,٠٠

وفيما يلي الجدول (١٢) يبين الكلمات التي ارتبط بها كلُّ ضمير بحسب ورودها في السورة الكريم:

الجدول (١٢): الضمائر في سياقاتها وتكرارها		
نوع الضمير	السياق	العدد
هو	أَدْرَيْكَ، سَخَّرَهَا، قَبْلَهُ، أَخَذَهُمْ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، هُوَ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُ، يَأْكُلُهُۥ، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، إِنَّهُۥ، هُوَ، تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ	٣٤

نوع الضمير	السياق	العدد
أنتم	حَمَلْنَٰكُمْ، لَكُمْ، تُعْرَضُونَ، منكُمْ، هَآؤُمُ، ٱقْرَءُوا۟، كُلُوا۟، ٱشْرَبُوا۟، أَسْلَفْتُمْ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، مِنكُم، منكُم.	١٩
أنا	كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَهْ، أَدْرِ، حِسَابِيَهْ، عَنِّي، مَالِيَهْ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ، أُقْسِمُ.	١٥
هي	سَخَّرَهَا، فِيهَا، نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ، هِيَ، أَرْجَآئِهَا، قُطُوفُهَا، لَيْتَهَا، كَانَتِ، ذَرْعُهَا.	١٠
هم	أُهْلِكُوا۟، أُهْلِكُوا۟، عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُمْ، لَهُم، عَصَوْا۟، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، فَوْقَهُمْ.	٩
(نا) العظمة	إِنَّا، حَمَلْنَٰكُمْ، نَجْعَلَهَا، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، قَطَعْنَا، إِنَّا، نَعْلَمُ.	٨
أنت	أَدْرَىٰكَ، تَرَى، تَرَىٰ، رَبُّكَ، سَبِّحْ، رَبِّكَ.	٦
هما	دُكَّتَا.	١
المجموع		١٠٢

وفيما يلي الرسم البياني (١) لتواتر تلك الضمائر وتعاقبها مسلسَلة في السورة الكريمة، وفيه بروز واضح لضمير الغائب (هو) وسيطرته على المشهد، ولا سيما الثلث الأخير من مجموع الضمائر، بدءاً بالضمير رقم (٦٤) في قوله تعالى ﴿خُذُوهُ﴾ حتى آخر السورة.

الرسم البياني (١) لتواتر الضمائر وتعاقبها في السورة الكريمة

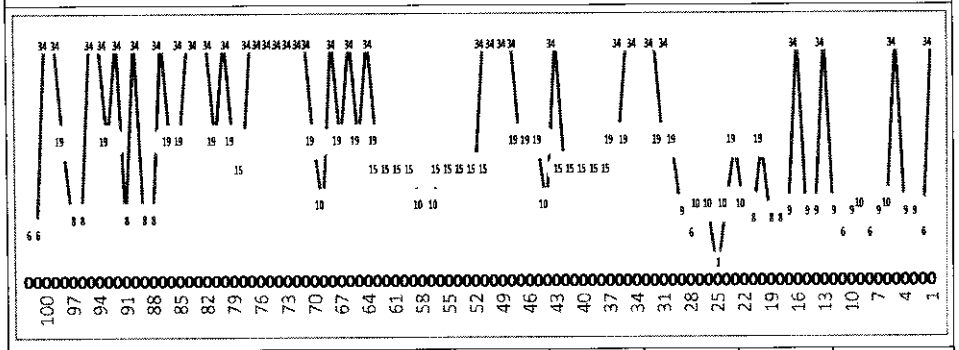

الضمير	هو	أنتم	أنا	هي	هم	(نا) العظمة	أنت	هما
التكرار	٣٤	١٩	١٥	١٠	٩	٨	٦	١

٥. من جهة الإحالة:

بعد أنْ تبيّن لنا فاعلية ضمير الغائب (هو)، وأثره في تكوين معالم السورة صار لزاماً علينا أنْ نستكشف المرجعيات التي يُحال عليها ذلك الضمير وغيره من الضمائر؛ لنقف على السُّلَّمية الإحالية لكلِّ ضمير، ثم السُّلَّمية الإحالية لكلِّ مرجع أُحيلت عليه الضمائر، وتُضبَط درجات هذه السُّلَّمية «باعتماد عدد العناصر الإحالية التي تعود على كلِّ عنصر منها؛ فأهم عنصر إشاري في النص يرتبط به أكبر عدد من العناصر الإحالية»(١)، ولنقف من ورائها على البنية الكبرى في السورة، وأكثر المشاهد تجسيداً لها، والدعائم التي تقوم عليها.

وبالإحصاء استخلصنا درجات السُّلَّمية الإحالية لكلِّ ضمير؛ فوجدنا أنّ ضمير الغائب (هو)، كما أسلفنا، حاز المرتبة العليا بين الضمائر، وكان أبرز مراجعه (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ)؛ إذ أُحيل عليه الضمير (١٣) ثلاث عشرة مرة، ثم يليه (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) (٥) خمس مرات، ثم (الذِّكْر) (٥) خمس مرات،

(١) الزنّاد، نسيج النص: ١٣٤-١٣٥.

ثم الرسول صلى الله عليه وسلم (٤) مرات، ثم مرة واحد لكلٍّ من (رَبِّهِمْ)، و(طَعَام/ غِسْلِين)، و(فِرْعَوْن)، و(الله رب العالمين)، و(مَآ)، و(ما تُبْصِرُونَ)، و(ما لا تُبْصِرُونَ)، فبلغ مجموع إحالات الضمير (هو) (٣٤) أربعاً وثلاثين إحالة على النحو الذي بيّنّا.

ثم في المرتبة الثانية يأتي ضمير المخاطبين (أنتم) بـ (١٩) تسع عشرة إحالة؛ إذ دلّ على المخاطبين بالسورة (١٠) عشر مرات، وعلى ملائكة العذاب (٤) أربع مرات، وعلى مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٣) ثلاث مرات، وعلى أهل المحشر (٢) مرتين.

وفي المرتبة الثالثة جاء ضمير المتكلم (أنا) بـ (١٥) خمس عشرة إحالة؛ فقد دل على مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ (٩) تسع مرات، وعلى مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٥) خمس مرات، وعلى الذات الإلهية (١) مرة واحدة.

وفي المرتبة الرابعة جاء ضمير الغائبة (هي) بـ (١٠) عشر إحالات؛ (٢) اثنتان منها للفَعلة، وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين، و(٢) اثنتان للسماء، و(٢) اثنتان للموتة الأولى، ومرة واحدة لكلٍّ من (رِيح، والديار أو الريح أو سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، وجَنَّةٍ، وسِلْسِلَةٍ).

وفي المرتبة الخامسة جاء ضمير الغائبين (هم) بـ (٩) تسع إحالات؛ (٤) أربع منها لقوم عاد، و(٣) لفِرْعَوْن وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَات، و(١) واحدة لثمود، و(١) أخرى للمَلَك أو ثَمَانِيَة.

وفي المرتبة السادسة جاء ضمير المتكلم المفرد المعظم (نا) دالًّا على الذات الإلهية (٨) ثماني مرات.

وفي المرتبة السابعة ضمير المخاطَب (أنت) دالًّا على النبي صلى الله عليه وسلم (٦) ست مرات.

وأخيراً كان ضمير الغائبتين (هما) دالًّا على الأرض والجبال مرة واحدة، والجدول (١٣) يبين لنا تفصيلاً الضمائر وتكراراتها، وتكرارات كلٍّ مرجع أُحيل عليه، والكلمات المرتبطة بالضمير، مرتبة بحسب ورودها في سياق السورة الكريمة.

الجدول (١٣) إحصاء الضمائر وإحالاتها المرجعية في السورة

الضمير	العدد	المُحال عليه (مرجع الضمير)	الكلمات المرتبطة بالضمير	المجموع
هو	١٣	مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ	أُوتِيَ، كِتَٰبِيَهْ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُۥ.	٣٤
	٥	مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ	أُوتِيَ، كِتَٰبِيَهْ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، هُوَ.	
	٥	ٱلذِّكْر	إِنَّهُۥ، هُوَ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ.	
	٤	محمد صلى الله عليه وسلم	تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ.	
	١	رَبِّهِمْ	أَخَذَهُمْ.	
	١	طَعَامُ/ غِسْلِينٍ	يَأْكُلُهُۥ.	
	١	فِرْعَوْنُ	قَبْلَهُۥ.	
	١	الله رب العالمين	سَخَّرَهَا.	
	١	مَآ	أَدْرَىٰكَ.	
	١	ما تبصرون	تُبْصِرُونَ(ـهُ).	
	١	ما لا تبصرون	تُبْصِرُونَ(ـهُ).	

الضمير	العدد	المُحال عليه (مرجع الضمير)	الكلمات المرتبطة بالضمير	المجموع
أنتم	١٠	المخاطبون	حَمَلْنَٰكُمْ، لَكُمْ، تُعْرَضُونَ، مِنكُمْ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، مِنكُم، مِنكُم.	١٩
	٤	ملائكة العذاب	خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ.	
	٣	مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ	كُلُوا۟، ٱشْرَبُوا۟، أَسْلَفْتُمْ.	
	٢	أهل المحشر	هَآؤُمُ، ٱقْرَءُوا۟.	
أنا	٩	مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ	لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَهْ، أَدْرِ، حِسَابِيَهْ، عَنِّي، مَالِيَهْ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ	١٥
	٥	مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ	كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ	
	١	الله رب العالمين	أُقْسِمُ.	

الضمير	العدد	المُحال عليه (مرجع الضمير)	الكلمات المرتبطة بالضمير	المجموع
هي	٢	الفعلة: (الإنجاء والإغراق)	نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ	١٠
	٢	ٱلسَّمَآءُ	هِيَ، أَرْجَآئِهَا	
	٢	الموتة الأولى	لَيْتَهَا، كَانَتِ	
	١	رِيحٍ	سَخَّرَهَا	
	١	الديار/ الريح/ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ	فِيهَا	
	١	جَنَّةٍ	قُطُوفُهَا	
	١	سِلْسِلَةٍ	ذَرْعُهَا	
هم	٤	عَادٌ	أُهْلِكُواْ، عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُمْ، لَهُم	٩
	٣	فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ	عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ	
	١	ثمود	أُهْلِكُواْ	
	١	ٱلْمَلَكُ/ ثَمَانِيَة	فَوْقَهُمْ	
(نا) العظمة	٨	الله رب العالمين	إِنَّا، حَمَلْنَاكُمْ، نَجْعَلَهَا، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، قَطَعْنَا، إِنَّا، نَعْلَمُ	٨

أنتَ	٦	محمد صلى الله عليه وسلم	أَدْرَيْكَ، تَرَى، تَرَىٰ، رَبَّكَ، سَبِّحْ، رَبُّكَ	٦
هما	١	الأرض والجبال	دُكَّتَا	١

ولنا بعد هذه التَّطوافة في الضمائر ومرجعياتها أنْ نستخلص أكثر المرجعيات تكراراً وفق كلِّ ضمير؛ فوجدنا أنَّه مع ضمير الغائب (هو) كان أكثرُها تكراراً (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ)؛ إذ تكرر (١٣) ثلاث عشرة مرة، ومع الضمير (أنتم) كان (المخاطبون)؛ إذ تكرر (١٠) عشر مرات، ثم مع ضمير المتكلم (أنا) كان (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ)؛ إذ تكرر (٩) تسع مرات، ثم ضمير الذات الإلهية بالتعظيم (نا)، إذ تكرر ثماني مرات، ثم يليه ضمير المخاطَب (أنتَ) دالًّا على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ تكرر (٦) ست مرات، ثم ضمير الغائبين (هم) دالًّا على (عَاد) (٤) أربع مرات، ثم ضمير الغائبة (هي) دالًّا على (الفعلة: إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين) و(ٱلسَّمَآء) و(الموتة الأولى)؛ إذ تكرر كلٌّ منها مرتين، وأخيراً ضمير الغائبتين (هما) دالًّا على (الأرض والجبال) مرة واحدة، والجدول (١٤) يوضح هذه الإحالات المرجعية الأكثر تكراراً وفق كلِّ ضمير.

الجدول (١٤): الإحالات المرجعية الأكثر تكراراً وفق كلِّ ضمير في السورة

الضمير	العدد	المُحال عليه (مرجع الضمير)
هو	١٣	مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ
أنتم	١٠	المخاطبون
أنا	٩	مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ

الضمير	العدد	المُحال عليه (مرجع الضمير)
(نا) العظمة	٨	الله رب العالمين
أنتَ	٦	محمد صلى الله عليه وسلم
هم	٤	عَادٌ
هي	٢	الفعلة: وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين
هي	٢	ٱلسَّمَآءُ
هي	٢	الموتة الأولى
هما	١	الأرض والجبال

والذي يسترعي الانتباه هنا أنَّ المرجع (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) كان له الصدارة في ضميري الغائب (هو) والمتكلم (أنا)، بمجموع قدره (٢٢) اثنان وعشرون تكراراً، وإنَّ هذه النتيجة لتُغري بإحصاء تكرار الإحالة على كلِّ مرجع وفق مختلف الضمائر؛ لنقف على السُّلَّمية الإحالية للمراجع، ولنتبيّن الأكثر إحالةً وتأثيراً في بناء السورة عموماً.

٥/ أ. السُّلَّمية الإحالية والبنية الكبرى:

بالإحصاء وجدنا، كما أسلفنا، أنَّ (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) ما زال الأكثر تكراراً؛ إذ تكرر (٢٢) اثنتين وعشرين مرة، يليه (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) تكرر (١٣) ثلاث عشرة مرة، ثم (الله) جلَّ جلاله، ورسوله (محمد) صلى الله عليه وسلم، و(المخاطبون) بتكرار مقداره (١٠) عشر مرات لكلِّ مرجع، ثم

(ٱلذِّكْر) (٥) خمس مرات، ثم (ملائكة العذاب) و(عاد) (٤) أربع مرات لكلٍّ منهما، ثم (فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ) (٣) ثلاث مرات، ثم (السماء) و(أهل المحشر) و(الفعلة) و(الموتة الأولى) بـ(٢) مرتين لكلٍّ منها، ثم مرة واحدة لكلٍّ من المراجع الباقية والمبيّنة في الجدول (١٥).

الجدول (١٥): المُحال عليه وتكراراته في السورة

المرجع المُحال عليه	تكراره	الإحالة في سياقها
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ	٢٢	أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَه، أَدْر، حِسَابِيَهْ، عَنِّي، مَالِيَهْ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُ.
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ	١٣	أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، هُوَ، كُلُوا۟، ٱشْرَبُوا۟، أَسْلَفْتُمْ
محمد صلى الله عليه وسلم	١٠	أَدْرَىٰكَ، تَرَى، تَرَىٰ، رَبِّكَ، تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ، سَبِّحْ، رَبِّكَ.
الله رب العالمين	١٠	سَخَّرَهَا، إِنَّا، حَمَلْنَٰكُمْ، نَجْعَلَهَا، أُقْسِمُ، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، قَطَعْنَا، إِنَّا، نَعْلَمُ.

المرجع المُحال عليه	تكراره	الإحالة في سياقها
المخاطبون	١٠	حَمَلْنَٰكُمْ، لَكُمْ، تُعْرَضُونَ، مِنكُمْ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، مِنكُم، مِنكُم.
ٱلذِّكْر	٥	إِنَّهُۥ، هُوَ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ
ملائكة العذاب	٤	خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ
عَادٌ	٤	أُهْلِكُواْ، عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُمْ، لَهُم
فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ	٣	عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ
الفعلة: (الإنجاء والإغراق)	٢	نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ
ٱلسَّمَآءُ	٢	هِيَ، أَرْجَآئِهَا
أهل المحشر	٢	هَآؤُمُ، ٱقْرَءُواْ
الموتة الأولى	٢	لَيْتَهَا، كَانَتِ
مَآ	١	أَدْرَىٰكَ
ثمود	١	أُهْلِكُواْ
رِيحٍ	١	سَخَّرَهَا
الديار/ الريح/ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ	١	فِيهَا

المرجع المُحال عليه	تكراره	الإحالة في سياقها
فِرْعَوْنُ	١	قَبْلَهُ
رَبِّهِمْ	١	أَخَذَهُمْ
الأرض والجبال	١	دُكَّتَا
ٱلْمَلَكُ/ ثَمَانِيَة	١	فَوْقَهُمْ
جَنَّةٍ	١	قُطُوفُهَا
سِلْسِلَةٍ	١	ذَرْعُهَا
طَعَامٌ/ غِسْلِينٍ	١	يَأْكُلُهُ
ما تبصرون	١	تُبْصِرُونَ(ـهُ)
ما لا تبصرون	١	تُبْصِرُونَ(ـهُ)

إنَّ نظرة تأملية في هذا الجدول تأخذ بأيدينا إلى مركز هذه السورة وأكثر مشاهدها فاعلية؛ إذ يتصدر المراجعَ الأكثرَ تكراراً عنصران من مشهد واحد، هما: (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ)، و(مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) بتكرار مجموعه (٣٥) خمس وثلاثون مرة، وإذا أضفنا له عناصر المشهد نفسه، وهي (ملائكة العذاب) (٤) أربع مرات، وأهل المحشر (٢) مرتين، والموتة الأولى (٢) مرتين، و(جَنَّةٍ) مرة، و(سِلْسِلَةٍ) مرة، و(طَعَامٌ/ غِسْلِينٍ) مرة، مع ضميرين من بداية المشهد يعودان على (المخاطبين)، وهما (تُعْرَضُونَ، ومِنكُمْ)، يصبح مجموع الضمائر المُحالة على هذه المراجع (٤٨) ثمانية وأربعين ضميراً ائتلفت في سبك لغوي محكم لتبرز

لنا أهم مشهد في هذه السورة الكريمة، ألا وهو مشهد فرحة المؤمنين وحسرة الكافرين وعاقبة كلٍّ منهما يوم يُعرضون على ربهم لا تخفى منهم خافية.

إنَّ هذه النتيجة تنسجم انسجامًا تامّاً مع ذهبت إليه الدراسات اللسانية الحديثة من وجهين:

أولهما: ما عبّر عنه فان دايك بـ(الكم النصي) في قوله: «وتحدد البنية الكبرى بأنَّها الكم النصي»[1]، والبنية الكبرى في سورة الحاقة كما رأينا إحصائياً هي مشهد يوم العرض وما فيه من ثواب وعقاب؛ إذ بلغ عدد كلماته (٩٨) ثماني وتسعين كلمة من (٢٥٨) مئتين وثمانٍ وخمسين، أي ما نسبته (٩٨ , ٣٧٪) من مجموع كلمات السورة، ومجموع الضمائر فيه (٤٨) ثمانية وأربعون ضميراً من (١٠٢) مئة واثنين، أي ما نسبته (٠٥ , ٤٧٪) من مجموع الضمائر في السورة، كما هو مبيَّن في الجدول (١٦).

الجدول (١٦)

البيان	السورة	مشهد يوم العرض	النسبة المئوية
الكلمات	٢٥٨	٩٨	٪ ٣٧,٩٨
الضمائر	١٠٢	٤٨	٪ ٤٧,٠٥

ثانيهما: ارتكاز النص على الجملة الأولى بل على الكلمة الأولى فيه، وهو ما اصطُلح عليه بـ(التغريض) الذي يعرّفه براون ويول بأنَّه «نقطة بداية قول ما»[2]، عليها يُبنى النص، وفي فلكها تدور أجزاؤه، يقول محمد خطابي: «إنَّ مفهومي التغريض والبناء يتعلقان بالارتباط الوثيق بين ما يدور في الخطاب وأجزائه وبين عنوان الخطاب أو نقطة بدايته...، وإنْ شئنا التوضيح قلنا إنَّ في الخطاب مركز جذب يؤسسه منطلقُه، وتحوم حوله بقية أجزائه»[3]، وإلى مثل

(١) فان دايك، علم النص: ٨٦.

(٢) خطابي، لسانيات النص: ٥٩.

(٣) السابق نفسه: ٥٩.

ذلك يذهب الأزهر الزنّاد بقوله: «فالجملة الأولى في أي نص تمثّل مَعلَماً عليه يقوم اللاحق منها ويعود. وداخل تلك الجملة نفسها يمثّل اللفظ الأول منها مَعلَماً تقوم عليه سائر مكوناتها»(١).

ولئن ذهب الباحثون إلى الكلمة الأولى والجملة الأولى فإنَّ سورة (الحاقة) قد حقّقت ذلك كله وزيادة، بتكرار اللفظ في ثلاثة الجُمل الأولى؛ فقال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، وبمرادفه في الرابعة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾، وتأكيده بعدُ بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ ليؤسس عليه البنية الكبرى من السورة في مشهد الساعة التي يحق فيها الثواب والعقاب.

وإنَّ التأمّل في مشهد الجزاء يؤكّد مصداقية ما ذهب إليه كلٌّ من خطابي والزنّاد من أنَّ في النص مركز جذب يؤسسه منطلقُه وتحوم حوله بقية أجزائه؛ فالمشاهد في السورة كلها يأخذ بعضها برقاب بعض لتصبّ في هذه الحاقة التي هي خاتمة الطريق إلى الله إما سعادة أبدية وإما شقاءً أبدياً، وقد تصدَّر السورةَ ذكرُ الحاقة تفخيماً وتهويلاً، وأتبعه مشهد الذين كذّبوا بها مِن قبلُ وما حلّ بهم تنبيهاً وتحذيراً، ثم بلوغُ الكونِ أجلَه المسمّى تدميراً وتمهيداً ليوم لا تخفى فيه خافية، يوم تقع فيه الواقعة وتحقّ الحاقة، فيفوز من آمن قلبه ووعى، ويخيب من كذب وأبى، ولبلوغ الهدف لا بدَّ من الاطمئنان إلى الطريق والوثوق بالدليل، فكان المشهد الأخير تنزيهاً للقرآن عن تقوّله، وتأييداً للرسول وعصمته، وبذلك تنضوي كلُّ المشاهد تحت مظلة الحاقة تمهيداً وبسطاً وتعقيباً، وفيما يلي الرسم البياني رقم (٢) يوضح تنامي النص باتجاه بنيته الكبرى وفق معدلات التكرار لكلِّ مرجع أحيلت عليه الضمائر؛ إذ يبلغ ذروته في مشهد الجزاء مع (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ).

(١) الزنّاد، نسيج النص: ٦٧.

الرسم البياني (٢)

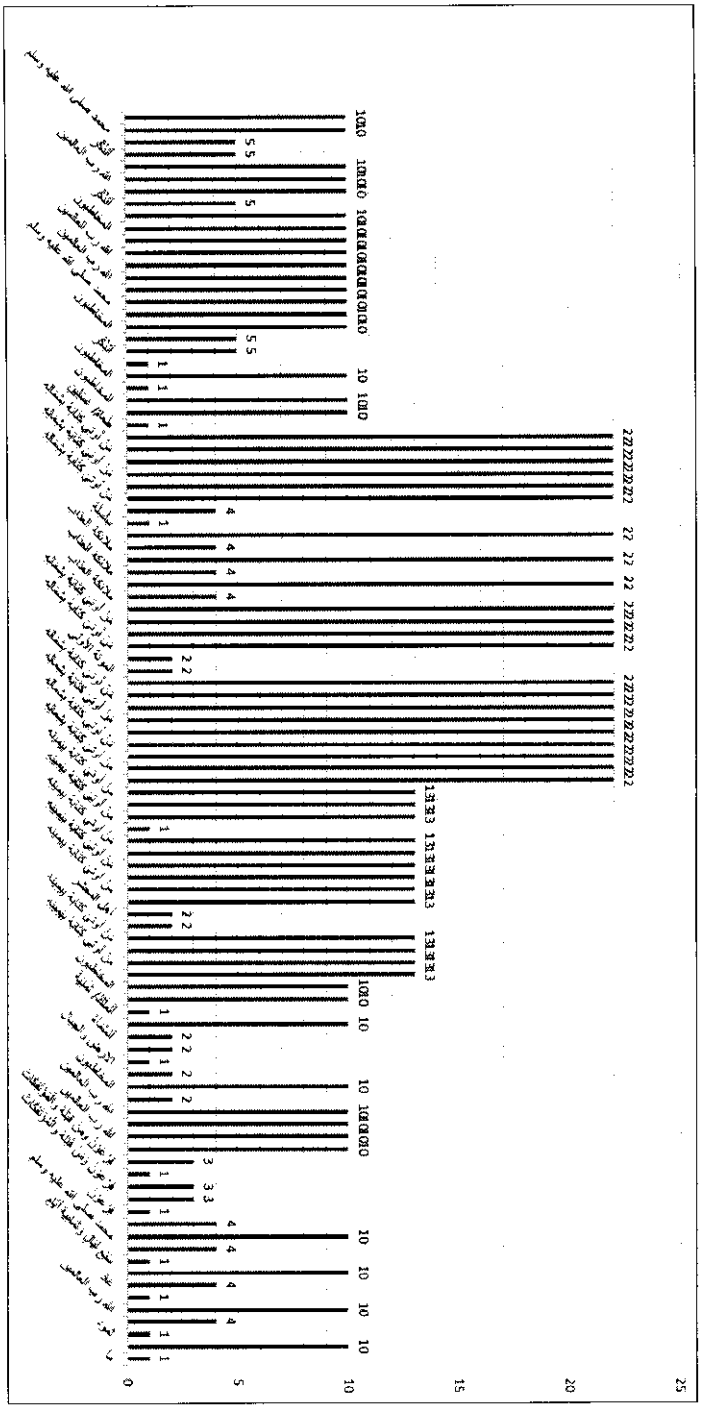

٥/ ب. السُّلَّمية الإحالية في ضوء الإحالات الداخلية:

هـذا، ويُنظَـر في دراسـات الاتسـاق النـصي إلى مرجعيـات الضمائـر؛ أنصيّـة هـي ذات أثـر في الاتسـاق النـصي أم أنّهـا تؤثـر في النـص مـن خارجـه ولا وجـود لهـا في كلـمات النـص؟ وتلـك المرجعيـات تُعـرف بالإحالـة الداخليـة (المقاليـة) والإحالـة الخارجيـة (المقاميـة)، وقـد بيّنـا ذلـك في أنـواع الإحالـة.

وسـورة الحاقـة مـن جهـة الإحالـة تشـتمل النوعـين معـاً، إذ بلغـت ضمائـر الغيبـة (٥٤) أربعـة وخمسـين ضمـيراً، والإحالـة فيهـا عـلى مذكـور في النـص لفظـاً أو تقديـراً، ونسـبتها الكليـة (٩٤ , ٥٢ ٪)، وبلغـت ضمائـر الحضـور (٤٨) ثمانيـة وأربعـين ضمـيراً، والإحالـة فيهـا عـلى المخاطَـب (٢٥) خمسـة وعـشرون مـرة، بنسـبة قدرهـا (٥٠ , ٢٤ ٪)، وعـلى المتكلّـم (٢٣) ثلاثـة وعـشرون مـرة، بنسـبة قدرهـا (٥٤ , ٢٢ ٪)، كـما هـو مبـيَّن في الشكل (٨).

الشكل (٨)

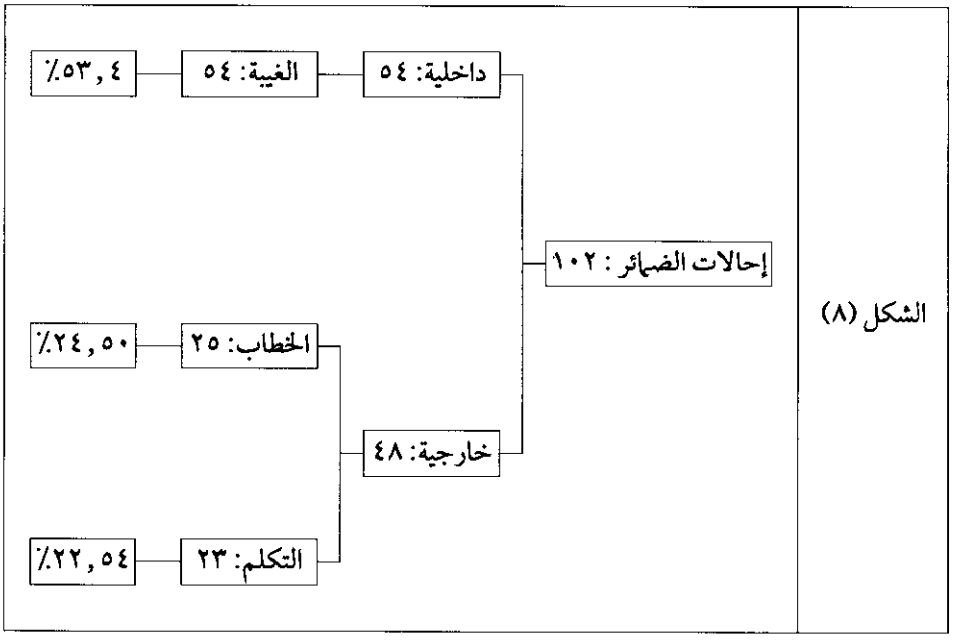

وفيما يلي الجدول رقم (١٧) وفيه إحصاء للضمائر وفق نوع الإحالة، ونوع الضمير من حيث الغيبة والحضور بحسب ورودها في السورة الكريمة:

الجدول رقم (١٧): إحصاء الضمائر وفق نوع الإحالة

نوع الإحالة	نوع الضمير	الضمائر في سياقها من السورة	العدد
إحالة داخلية	الغائب	أَدْرَىٰكَ، أُهْلِكُواْ، أُهْلِكُواْ، سَخَّرَهَا، سَخَّرَهَا، عَلَيْهِمْ، فِيهَا، كَأَنَّهُمْ، لَهُم، قَبْلَهُۥ، عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ، أَخَذَهُمْ، نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ، دُكَّتَا، هِيَ، أَرْجَآئِهَاۚ، فَوْقَهُمْ، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، هُوَ، قُطُوفُهَا، أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، لَيْتَهَا، كَانَتِ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ذَرْعُهَا، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُ، يَأْكُلُهُۥ، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، تُبْصِرُونَ(ـهُ)، إِنَّهُۥ، هُوَ، تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ.	٥٤
إحالة خارجية	المخاطب	أَدْرَىٰكَ، تَرَى، تَرَىٰ، حَمَلْنَٰكُمْ، لَكُمْ، رَبُّكَ، تُعْرَضُونَ، مِنكُمْ، هَآؤُمُ، ٱقْرَءُواْ، كُلُواْ، ٱشْرَبُواْ، أَسْلَفْتُمْ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، تُبْصِرُونَ، تُبْصِرُونَ، تُؤْمِنُونَ، تَذَكَّرُونَ، مِنكُم، مِنكُم، سَبِّحْ، رَبِّكَ.	٢٥
	المتكلم	إِنَّا، حَمَلْنَٰكُمْ، نَجْعَلَهَا، كِتَٰبِيَهْ، إِنِّي، ظَنَنتُ، أَنِّي، حِسَابِيَهْ، لَيْتَنِي، أُوتَ، كِتَٰبِيَهْ، أَدْرِ، حِسَابِيَهْ، عَنِّي، مَالِيَهْۜ، عَنِّي، سُلْطَٰنِيَهْ، أُقْسِمُ، عَلَيْنَا، أَخَذْنَا، قَطَعْنَا، إِنَّا، نَعْلَمُ.	٢٣

ولمزيد من التقصي في شأن البنية الكبرى وهرمية المرجع الأكثر فاعلية وتماسكاً في بناء النص نستخلص المراجع المحال عليها في الإحالات الداخلية وتكراراتها، فنجد أنَّ (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) أحيلت عليه الضمائر (١٣) ثلاث عشرة مرة، يليه (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) (٥) خمس مرات، ثم (ٱلذِّكْر) (٥) خمس مرات، ثم (عَاد) و(محمد صلى الله عليه وسلم) (٤) أربع مرات لكلٍّ منهما، ثم (فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ) (٣) ثلاث مرات، ثم (الفَعلة) و(ٱلسَّمَآء) و(الموتة الأولى) (٢) مرتين لكلٍّ منها، ثم باقي المراجع (١) مرة واحدة لكلٍّ منها حسب ما هو موضَّح في الجدول (١٨).

الجدول (١٨): إحصاء تكرار المراجع وفق الإحالات الداخلية وسياقاتها

المرجع المحال عليه	الضمائر في سياقها من السورة	العدد
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ	أُوتِيَ، كِتَٰبِيَهْ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُ.	١٣
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ	أُوتِيَ، كِتَٰبِيَهْ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، هُوَ.	٥
ٱلذِّكْر	إِنَّهُۥ، هُوَ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ، إِنَّهُۥ.	٥
عَادٌ	أُهْلِكُواْ، عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُمْ، لَهُم.	٤
محمد صلى الله عليه وسلم	تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ.	٤
فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ	عَصَوْاْ، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ.	٣

المرجع المحال عليه	الضمائر في سياقها من السورة	العدد
الفعلة وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين	نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ.	٢
ٱلسَّمَآءُ	هِيَ، أَرْجَآئِهَاۚ.	٢
الموتة الأولى	لَيْتَهَا، كَانَتِ.	٢
مَآ	أَدْرَىٰكَ.	١
ثمود	أُهْلِكُواْ.	١
الله رب العالمين	سَخَّرَهَا.	١
رِيحٍ	سَخَّرَهَا.	١
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ	فِيهَا.	١
فِرْعَوْنُ	قَبْلَهُۥ.	١
رَبِّهِمْ	أَخَذَهُمْ.	١
الأرض والجبال	دُكَّتَا.	١
ٱلْمَلَكُ/ ثَمَٰنِيَةٌ	فَوْقَهُمْ.	١

المرجع المحال عليه	الضمائر في سياقها من السورة	العدد
جَنَّةٍ	قُطُوفُهَا.	1
سِلْسِلَةٍ	ذَرْعُهَا.	1
طَعَامٌ/ غِسْلِينٍ	يَأْكُلُهُ.	1
ما تبصرون	تُبْصِرُونَ(ـهُ).	1
ما لا تبصرون	تُبْصِرُونَ(ـهُ).	1

وهذا يعني أنَّ (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) يحتل الذروة في السُّلَّمية الإحالية، يستوي في ذلك الإحالات الداخلية التي يعول عليها في ترابط مكونات النص، والإحالات الخارجية التي تربط النص بالمقام.

وإذا ما أضفنا إلى (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) تكرارات الإحالة الداخلية على باقي المراجع في مشهد يوم العرض والجزاء، فإنَّه يبقى كذلك هو المشهد الأساسي والبنية الكبرى التي تدور في فلكها باقي مشاهد السورة؛ إذ بلغ مجموع الإحالات الداخلية في هذا المشهد (٢٣) ثلاثة وعشرين إحالة، أعلاها (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) (١٣) ثلاث عشرة إحالة كما بينا، ثم (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) (٥) خمس إحالات، ثم (الموتة الأولى) (٢) إحالتان، ثم إحالة واحدة لكلٍّ من (جَنَّةٍ) و(سِلْسِلَةٍ) و(طَعَامٌ/ غِسْلِينٍ)، والرسم البياني (٣) الآتي يبين لنا هيمنة هذا المشهد على السورة وبروز المرجع الأكثر فاعلية في المشهد خصوصاً والسورة عموماً.

الرسم البياني (٣) مراجع الإحالات الداخلية وتكرارها

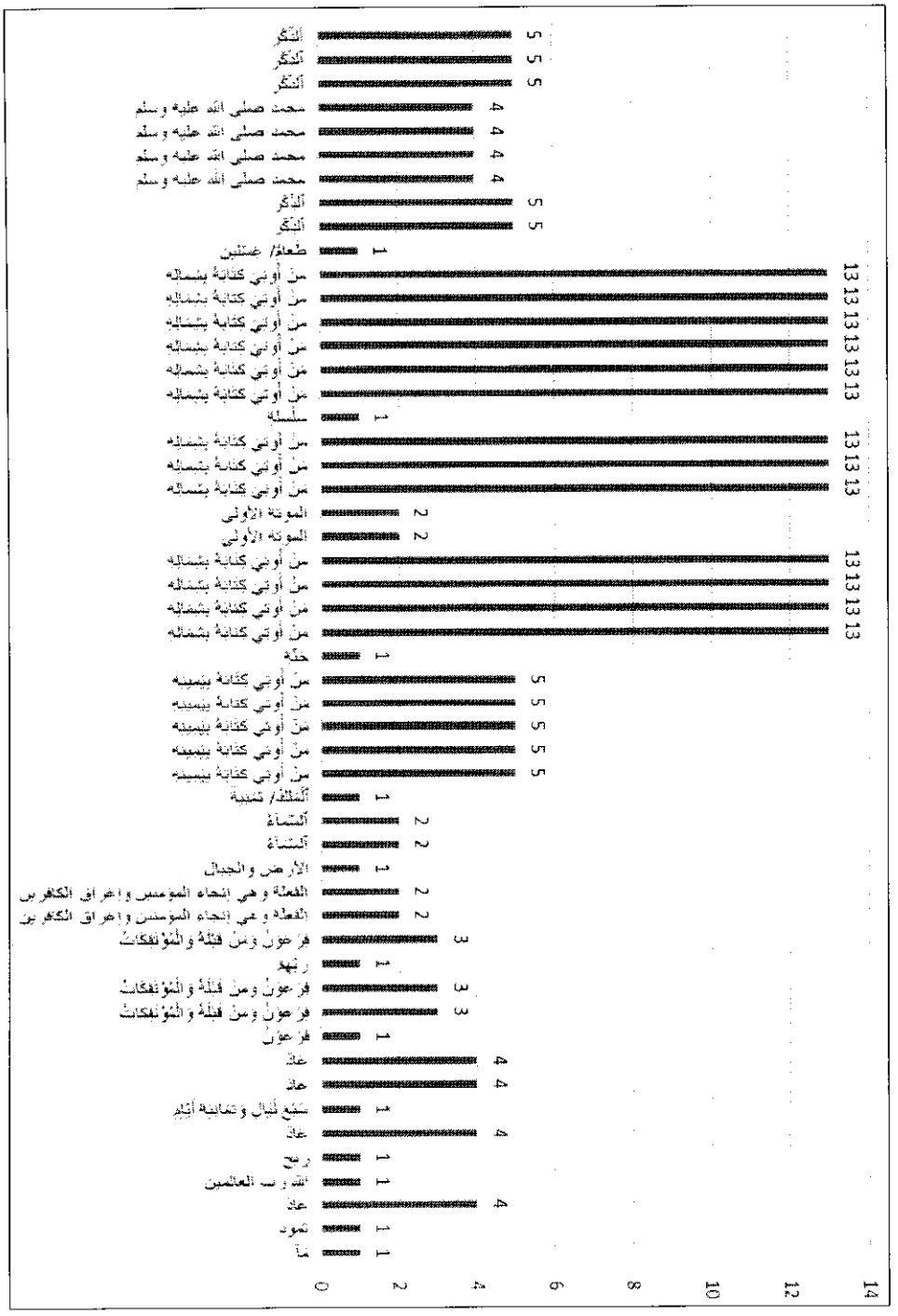

٥/ ج. ترتيب مشاهد السورة في السلَّم الإحالي:

لا يخفى أثر تكرار الإحالة على مرجع ما في تقديم مشهد على غيره في السلَّم الإحالي، وهو حتماً مختلف عن ترتيب المشاهد في السياق النصي، وقد وجدنا أنَّ المشهد الثالث في سياق السورة الكريمة وهو مشهد يوم العرض وتلقي الكتب وعاقبة المؤمن والكافر يحتلّ الصدارة في السلّم الإحالي؛ إذ توالت على أبرز مراجعه (١٣) ثلاث عشرة إحالة نصية من أصل (٥٤) أربع وخمسين إحالة في السورة كلها، أي ما نسبته (٠٧ , ٢٤٪)، وهي أعلى نسبة إحالة على مرجع واحد في السورة؛ فارتقى بالمشهد كله إلى مرتبة الصدارة في السلَّم الإحالي، وفي الجدول (١٩) بيان لعناصر الإحالة وتكرارها في المشهد.

الجدول (١٩): المشهد الثالث في السورة

المَرجع المُحال عليه	تكراره	الكلمات المرتبطة بالضمير بترتيبها في السورة
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ	١٣	أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، شِمَالِهِۦ، يَقُولُ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، اسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، لَهُ
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ	٥	أُوتِيَ، كِتَٰبَهُۥ، يَمِينِهِۦ، يَقُولُ، هُوَ
الموتة الأولى	٢	لَيْتَهَا، كَانَتِ
جَنَّةٍ	١	قُطُوفُهَا
سِلْسِلَةٍ	١	ذَرْعُهَا
طَعَامٌ/ غِسْلِينٍ	١	يَأْكُلُهُۥٓ

وإنَّ نظرة تحليلية للنسيج اللغوي لهذا المشهد الذي يدور في فلك (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) والضمائر التي أُحيلَت عليه تُبرز لنا إحكام السبك ومتانة الربط باقتضاب عبارة واجتزاء إشارة؛ فقد احتبك حول (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) من الكلام كلُّ أقسامه (اسم وفعل وحرف)؛ فمن الأسماء (كِتَٰبِيَهْ، شِمَالِهِۦ)، ومن الأفعال (يَقُولُ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، كَانَ، أُوتِيَ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ)، ومن الحروف (إِنَّهُۥ، لَهُۥ).

واحتبك حوله من الفعل كلُّ أزمانه؛ فمن الماضي (كَانَ، أُوتِيَ)، ومن المضارع (يَقُولُ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ)، ومن الأمر (خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ). والفعل بقسميه تماماً ونقصاً؛ فمن الأول (يَقُولُ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، أُوتِيَ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ)، ومن الثاني (كَانَ). وكذلك ما سُمي فاعله وما لم يُسمّ؛ فمن الأول (يَقُولُ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ)، ومن الثاني (أُوتِيَ). وأيضاً من الفعل معربه ومبنيه؛ فمن الأول (يَقُولُ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ)، ومن الثاني (كَانَ، أُوتِيَ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ)، ومن التعدية المتعدّي لواحد ولاثنين والمتعدّي بنفسه وبحرف معاً؛ فمن الأول (يَقُولُ، خُذُوهُ، غُلُّوهُ)، ومن الثاني (أُوتِيَ)، ومن الثالث (فِي سِلْسِلَةٍ... ٱسْلُكُوهُ). وأخيراً حدوث الفعل إثباتاً ونفياً؛ فمن الأول (يَقُولُ، أُوتِيَ، كَانَ)، ومن الثاني (لَا يُؤْمِنُ، وَلَا يَحُضُّ).

وجاء الضمير بحالتيه استتاراً وظهوراً، فمن الأول (يَقُولُ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، كَانَ، أُوتِيَ)، ومن الثاني (خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، لَهُۥ، كِتَٰبِيَهْ، شِمَالِهِ). وجاء مبنيّاً على الفتح والضم والكسر؛ فمن الأول وتقديره (هوَ) (يَقُولُ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ، كَانَ، أُوتِيَ)، ومن الثاني (خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ، لَهُۥ، كِتَٰبِيَهْ) ومن الثالث (شِمَالِهِ). وكان من الإعراب في محل رفع ونصب وجر؛ فمن الأول (أُوتِيَ، يَقُولُ، كَانَ، يُؤْمِنُ، يَحُضُّ)، ومن الثاني (خُذُوهُ، غُلُّوهُ، صَلُّوهُ، ٱسْلُكُوهُ، إِنَّهُۥ)، ومن الثالث (كِتَٰبِيَهْ، شِمَالِهِ، لَهُۥ).

وبعد هذا وذاك، نجد أنَّ المرجع (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) (٤) أربع كلمات، تكررت عليه الإحالة النصية (١٣) ثلاث عشرة مرة بضمائر، (٥) خمسة منها مستترة و(٨) ثمانية متصلة؛ فحسبُ النص تماسكاً أنَّ ثمانية أحرف متصلة وخمسة مستترة أغنت عن ذكر اثنتين وخمسين كلمة، فضلاً عما في ذكرها من هلهلة نسج وإملال سامع وقارئ؛ فأي سبك هذا؟ وأي إحكام هذا؟!

وإذا انتقلنا إلى ثاني المشاهد رتبة وكثافة في الإحالات بعد مشهد العرض والحساب نجد المشهد الأخير، وهو مشهد تنزيه القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم عن المطاعن؛ فقد توالت الإحالات على أبرز عناصره وهو الذكر الحكيم (٥) خمس مرات، ثم على النبي صلى على الله عليه وسلم (٤) أربع مرات، ومرة واحدة على (ما تبصرون)، وأخرى على (ما لا تبصرون)، كما هو مبين في الجدول (٢٠).

الجدول رقم (٢٠): المشهد الرابع في السورة		
المَرجع المُحال عليه	تكراره	الكلمات المرتبطة بالضمير بترتيبها في السورة
ٱلذِّكْر	٥	إِنَّهُ، هُوَ، إِنَّهُ، إِنَّهُ، إِنَّهُ
محمد صلى الله عليه وسلم	٤	تَقَوَّلَ، مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ
ما تبصرون	١	تُبْصِرُونَ(ـهُ)
ما لا تبصرون	١	تُبْصِرُونَ(ـهُ)

افتتح المشهد بالقسم توكيداً لإسناد القرآن الكريم للرسول تبليغاً عن رب العالمين، ثم نفي الشعر والكهانة عنه، ثم تنزيه النبي وتبرئته من التقوّل على الله ولكنْ بأسلوب الشرط على سبيل التقدير والفرض، وبأشدّ العبارات على غير المعهود، وإنَّ انتفاء الجواب في الواقع يؤكد انتفاء الشرط وعصمة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يعود لتأكيد أنَّ القرآن تذكرة وحسرة وحق لا ريب فيه.

وفي المشهد ضميران محذوفان (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ[ـهُ] وَمَا لَا تُبْصِرُونَ[ـهُ])، وهما مع حذفهما لم يخُل منهما شيء؛ فذلك قسم عظيم «شمل الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة»[1]؛ فما الحاجة لذكرهما إذا كان كلُّ مذكور وغير مذكور دونهما بل يندرج فيهما؟

ومن اللافت للنظر في هذا المشهد اكتناف ضمائر الذكر الحكيم لضمائر الرسول الكريم، اثنان قبله (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) وثلاثة بعده (إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ، إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ، إِنَّهُ لَحَقُّ)، منها (٤) أربع ضمائر متصلة بـ (إنَّ) للتوكيد، وضمير منفصل منفي (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ).

وزبدة القول: إنَّ الذكر الحكيم أُحيلَت عليه (٥) خمسة ضمائر بأحوال مختلفة، اتصالاً وانفصالاً، إثباتاً ونفياً، تأكيداً وغير تأكيد. أمَّا النبي صلى الله عليه وسلم فقد أُحيلَت عليه (٤) أربعة ضمائر، واحد مستتر فاعل (تَقَوَّلَ)، وثلاثة متصلة مجرور ة (مِنْهُ، مِنْهُ، عَنْهُ).

وفي المرتبة الثالثة يأتي مشهد افتتاح السورة بذكر الحاقة وإهلاك المكذبين بها من الأمم السابقة، وقد استحوذت (عَاد) على (٤) أربعة ضمائر، أي ما نسبته (٤٠ ,٧٪) من مجموع الإحالات النصية، ثم (فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ) على (٣) ثلاثة ضمائر، ثم (الفَعلة: إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين) على ضميرين، ثم ضمير واحد لكلٍّ من المراجع السبعة الباقية، كما هو مبيَّن في الجدول (٢١).

الجدول (٢١): المشهد الأول في السورة

المَرجع المُحال عليه	تكراره	الكلمات المرتبطة بالضمير بترتيبها في السورة
عَادٌ	٤	أُهْلِكُوا، عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُمْ، لَهُم

(١) الرازي، التفسير الكبير: ٣٠/ ١١٦.

المَرجع المُحال عليه	تكراره	الكلمات المرتبطة بالضمير بترتيبها في السورة
فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ	٣	عَصَوْا، رَبِّهِمْ، أَخَذَهُمْ
الفعلة: إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين	٢	نَجْعَلَهَا، تَعِيَهَآ
مَآ	١	أَدْرَىٰكَ
ثمود	١	أُهْلِكُوا۟
الله رب العالمين	١	سَخَّرَهَا
رِيحٍ	١	سَخَّرَهَا
الديار/ الريح/ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ	١	فِيهَا
فِرْعَوْنُ	١	قَبْلَهُ
رَبِّهِمْ	١	أَخَذَهُمْ

ويأتي في المرتبة الأخيرة مشهد تدمير السماء والأرض والجبال إيذاناً بانبلاج مشهد جديد في يوم شديد، واقتصر المشهد على (٤) أربعة إحالات، انفردت (ٱلسَّمَآءُ) بإحالة ضميرين أحدهما منفصل والآخر متصل، ونسبة مئوية مقدارها (٧٠,٣٪)، ثم (الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ) بضمير واحد يفيد التثنية، وثمة ضمير واحد وقع بين مرجعين يحتملانه في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى

أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾؛ إذ الضمير في (فَوْقَهُمْ) يحتمل الإحالة على سابق وهو (الْمَلَكُ)، وعلى لاحق وهو (ثَمَانِيَةٌ)، وفي الجدول (٢٢) بيان ذلك.

الجدول (٢٢): المشهد الثاني (٤) إحالات داخلية

المَرجع المُحال عليه	تكراره	الكلمات المرتبطة بالضمير بترتيبها في السورة
ٱلسَّمَآءُ	٢	هِيَ، أَرْجَآئِهَا
الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ	١	دُكَّتَا
ٱلْمَلَكُ/ ثَمَانِيَة	١	فَوْقَهُمْ

٥/ د. خصوصيات إحالية:

ثمة ملامح في بعض هذه الإحالات تنأى بها عن الغالب المألوف، وهي:

١ - عود الضمير على معلوم غير مذكور:

أ- في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا... ٧﴾؛ إذ فاعل (سَخَّرَها) يعود على الله جل جلاله، والاسم معلوم من السياق استُغني عن ذكره للعلم به، ومفسِّر الضمير كما يقول ابن مالك: «إما مُصَرَّحٌ بلفظه، أو مُسْتَغنى عنه بحضور مدلوله حِساً أو علْماً، أو بذِكْرِ ما هو له جزءٌ أو كلٌّ أو نظير، أو مُصاحِبٌ بوجهٍ ما»[1].

(١) ابن مالك، شرح التسهيل: ١/ ١٥٦.

ب- وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾؛ فالضمير في (لِنَجْعَلَهَا وَتَعِيَهَا) يعود على الحادثة المذكورة، وهي إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين.

ج- وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾، يعود الضمير في (لَيْتَهَا) على مفهوم من السياق، وهو الموتة الأولى أو لحظة تسلم الكتاب، يقول الرازي: «الضمير في (يَا لَيْتَهَا) إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان، الأول: إلى الموتة الأولى، وهي وإنْ لم تكن مذكورة إلّا أنّها لظهورها كانت كالمذكورة... والثاني: أنّه عائد إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب، والمعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قُضيت علي»[1].

٢- اتساع الدلالة باحتمال عودة الضمير على مرجعين أو أكثر، وقد جاء هذا في ثلاثة مواضع من السورة، وهي:

أ- في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ... ٧﴾؛ فالضمير في قوله (فِيهَا) يحتمل الديار والريح والليالي مع الأيام، يقول أبو حيان: «(فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا): أي في الليالي والأيام، أو في ديارهم، أو في مهابِّ الريح، احتمالات، أظهرها الأول؛ لأنّه أقرب ومصرح به»[2]

ب- في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾؛ إذ الضمير في (فَوْقَهُمْ) يحتمل الإحالة على سابق وهو (الْمَلَكُ)، وعلى لاحق وهو (ثَمَانِيَةٌ)، وأيضاً على

(١) الرازي، التفسير الكبير: ٣٠/ ١١٣.

(٢) الأندلسي، البحر المحيط: ٨/ ٣١٦.

مفهوم غير مذكور، وهو العالم، يقول أبو حيان: «وَالضَّمِيرُ فِي (فَوْقِهِمْ) عَائِدٌ عَلَى الْمَلَكِ ضَمِيرُ جمع على المعنى؛ لأَنَّه يُرَادُ بِهِ الْجِنْسُ، قَالَ مَعْنَاهُ الزَّمَخْشَرِيُّ. وَقِيلَ: يَعُودُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْحَامِلِينَ، أَيْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ. وَقِيلَ: عَلَى الْعَالَمِ كُلِّهِمْ»[1].

ج- في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾، والضمير في (يَأْكُلُهُ) يحتمل العودة على (طَعَام) وعلى (غِسْلِين)، والمؤدَّى واحد.

٣- عود الضمير على المضاف إليه في قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾، وهو من القليل النادر، إذ الأصل أنْ يعود على المضاف؛ لأَنَّه المُحدَّث عنه، وقد يعودُ على المضاف إليه بقرينة، فجاءت الآية على خلاف الأصل؛ إذ الآخذ هو ربهم وليس الرسول، قياساً على ما ذكره العلماء في قول فرعون: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٧]، أي موسى[2].

٤- حذف الضمير ووجوب تقديره في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ لم يُذكَر الضميران في الموضعين، ولا بدَّ من تقديرهما لربط جملة الصلة بالموصول، وتقديرهما: فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(ـه) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(ـه)؛ فهنا ضميران غير مذكورَين، ولا بدَّ من تقديرهما ليتحقق التماسك في التركيب النحوي.

(١) السابق نفسه: ٨/ ٣١٨.

(٢) انظر السيوطي، همع الهوامع: ٣/ ٤٦٦.

خاتمة

استعرض البحث طرفاً من جهود السابقين في نظم الخطاب وتماسك أجزائه شعراً ونثراً بدءاً بالجاحظ وانتهاءً بالمحدثين، ثم انتقل إلى تعريف الاتساق النصي في الدراسات الحديثة، وبيان أدواته، ولا سيما الإحالة، فعرّفها وعرّف بأدواتها، وأنواعها، وخص إحالة الضمائر بمزيد عناية، ثم شرع في الحديث عن سورة الحاقة فبيّن أغراضها، وأحصى ضمائرها، وصنف تلك الضمائر تصنيفات عدة، بالنظر إلى العدد، والجنس، والغيبة والحضور، والاستتار والظهور، مبيِّناً أعداد كلٍّ منها ونسبها المئوية، مدعماً ذلك كله بالجداول الإحصائية والأشكال التوضيحية والرسوم البيانية، وخلص البحث إلى وضع خارطة لشبكة الإحالات في سورة الحاقة الشكل (٩)، وإلى معالم إحصائية كان أبرزها:

- أنَّ ضمير الغائب (هو) كان أكثر الضمائر تكراراً وفاعلية في رسم مشاهد السورة الكريمة.
- وأنَّ أبرز مراجعه (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ)؛ إذ أُحيل عليه الضمير (١٣) ثلاث عشرة مرة.
- وأنَّ مشهد يوم العرض وما فيه من ثواب وعقاب هو البنية الكبرى للسورة، احتل الصدارة في كثرة الإحالات، وعليه معقد النص، وفي فلكه تدور السورة، ابتداءً من مطلعها (الحاقة) وانتهاءً بمختلف مشاهدها.

وأعاد البحث ترتيب مشاهد السورة بحسب منزلة كلٍّ مشهد في السلّم الإحالي، على النحو الآتي:

١. مشهد يوم العرض وما فيه من ثواب وعقاب.

٢. مشهد تنزيه القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم عن المطاعن.

٣. مشهد افتتاح السورة بذكر الحاقة وإهلاك المكذبين بها من الأمم السابقة.

٤. مشهد تدمير السماء والأرض والجبال إيذاناً بانبلاج مشهد جديد.

ثم بيّن البحث خصوصية بعض الإحالات في الاتساق الداخلي بين مكونات السورة الكريمة، والانسجام الخارجي بربطها بسورة القلم قبلها خاصةً، والخطاب القرآني عامة، فكان منها:

١) في الاتساق الداخلي:

أ- عود الضمير على معلوم غير مذكور في ثلاثة مواضع.

ب- اتساع الدلالة باحتمال عودة الضمير على مرجعين أو أكثر في ثلاثة مواضع.

ج- عود الضمير على المضاف إليه، وهو من القليل النادر، وذلك في موضع واحد.

د- حذف الضمير مع وجوب تقديره في موضعين.

٢) في الانسجام الخارجي:

وذلك أنَّ الإخبار عن الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝﴾ يحتّم عود ذلك الضمير على (ٱلذِّكۡر) الوارد في آخر سورة القلم قبلها، فيربط سورة الحاقة بسورة القلم خاصة، ويتوافق مع نظائره في سور أخرى ليكون مؤشراً على شبكة من الروابط في واحدة من البنى الكبرى للخطاب القرآني عامة.

الشكل (٩): شبكة الإحالات في سورة الحاقة

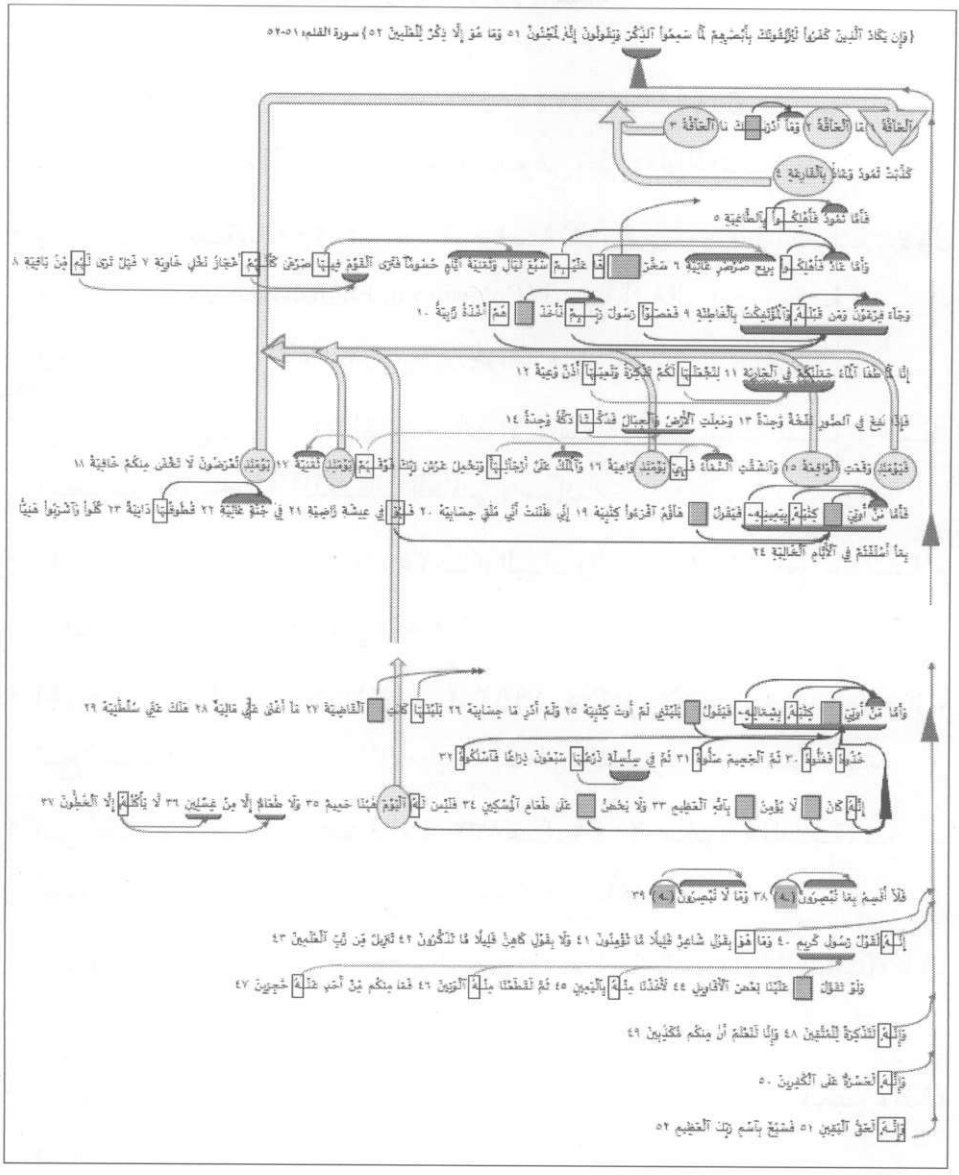

المصادر والمراجع

- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (ت: ٧٤٥هـ)، ١٩٩٣، تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- بلحوت، شريفة، ٢٠٠٦، «الإحالة: دراسة نظرية مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتاب (Cohesion in English) لـ م.أ.ك هاليداي ورقية حسن»، رسالة ماجستير في الآداب، جامعة الجزائر، الجزائر.
- بوقرة، د. نعمان، ٢٠٠٩، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ط١، جدارا للكتاب العالمي، عمّان.
- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، ١٩٩٨، تح: عبدالسلام هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الجرجاني، عبدالقاهر (ت: ٤٧١هـ)، ١٩٩٢، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر، ط٣، مطبعة المدني، القاهرة -دار المدني، جدة.
- ابن الجزري، محمد بن محمد (ت: ٨٣٣هـ)، ٢٠٠٦، منظومة المقدّمة، تح: د. أيمن رشدي سويد، ط٤، دار نور المكتبات، جدّة.
- خطابي، محمد، ١٩٩١، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت: ٦٠٤هـ)، ١٩٨١، التفسير الكبير، ط١، دار الفكر، بيروت.
- الزنّاد، الأزهر، ١٩٩٣، نسيج النص، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ)، ١٩٨٨، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: أحمد شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ)، ١٩٩٨م، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن سليمان، مقاتل (ت: ١٥٠هـ)، ٢٠٠٢م، تفسير مقاتل بن سليمان، تح: د. عبدالله محمود شحاته، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
- الغلاييني، مصطفى، ١٩٩٩، جامع الدروس العربية، ط٣٦، المكتبة العصرية، بيروت.
- فان دايك، تون أ، ٢٠٠١، علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، ط١، دار القاهرة للكتاب، القاهرة.
- ابن مالك، جمال الدين محمد بن عبدالله (ت: ٦٧٢هـ)، ١٩٩٠، شرح التسهيل، تح: د. عبدالرحمن السيد، ود. محمد بدوي المختون، ط١، هجر للطباعة، مصر.
- ابن منقذ، أسامة (ت: ٥٨٤هـ)، د.ت، البديع في نقد الشعر، تح: د. أحمد بدوي، ود. حامد عبدالمجيد، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
- ناظر الجيش، محمد بن يوسف بن أحمد (ت: ٧٧٨هـ)، ٢٠٠٧، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تح: د. علي محمد فاخر وآخرون، ط١، دار السلام، القاهرة.